الدكتور أحمد زياد محبك

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب

اللغـــــة العربية

وثقافة القرن الحادي والعشرين

بحوث ومقالات

حلب
٢٠٠٩

عنوان الكتاب: اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
الغلاف الخارجي: صميم المهندسة نورة محبك
دار النشر: دار الثريا، حلب
عدد النسخ: ٥٠٠
سنة النشر: ٢٠٠٩
المطبعة: مطبعة الأصيل، حلب
موافقة وزارة الإعلام: رقم ١٠٠٥٥٠ ـ تاريخ ٢٠٠٨/١٠/٢٧

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سيكون القرن الحادي والعشرون قرن اللغة العربية، وفيه سوف تشهد العربية نهوضًا واتساعًا وتطورًا، ومرجع ذلك إلى أسباب كثيرة، أهمها نهضة العرب أنفسهم، وتفتح وعيهم، وانتشارهم في العالم، وازدياد اهتمام العالم بهم، ورغبة الشعوب في التعرف إليهم، وانتشار الحاسوب، والقنوات الفضائية، واتساع التعليم في الوطن العربي، ولاسيما الجامعي، وستلقى مثل هذه الرؤية على الفور المعارضة من كثيرين، وفي مقدمتهم الغيورون على العربية، لأن النظرة المتشائمة هي الطاغية.

هناك كثير من الباحثين ممن يقولون بأن لغات كثيرة في العالم سوف تموت خلال القرن الحادي والعشرين، ويومئ بعضهم من بعيد إلى اللغة العربية، ومثل هؤلاء يحتجون بأن علماء اللغة لا يعتدّون إلا باللغة التي يتكلم بها أهلها، ويزعمون بعد ذلك أن العربية لا يتكلم بها العرب، وإنما بها يكتبون فقط، وأن العرب يتكلمون لغات يختلف بعضها عن بعضها الآخر، ومن المؤسف أن يردد مثل هذا الكلام باحثون في اللغة العربية، وأساتذة عرب يدرِّسون اللغة العربية في الجامعات الأوربية، ومثل تلك المزاعم غير صحيحة، فالعرب ما يزالون يتكلمون العربية منذ العصر الجاهلي إلى اليوم، مع بعض الاختلاف والتطور، الذي لا يبعد بهم عن اللغة العربية، وتعدد اللهجات واختلافها ظاهرة طبيعية في لغات العالم كله، وهي تصل في بعض لغات العالم إلى حد الاختلاف الشديد، حتى لا يستطيع الناطقون بلهجة فهم الناطقين بلهجة أخرى في اللغة نفسها، وإلى حد تحولت فيه بعض اللهجات إلى لغات، وهذا ليس بحادث في اللغة العربية، على الرغم من تعدد اللهجات واختلافها، والعراقي يفهم لهجة ويتواصل معه، وكذلك حال المصري والسوري واللبناني واليميني والإماراتي والكويتي والسعودي، وسائر العرب في أقطارهم العربية، ووجود ألفاظ قليلة متداولة هنا و غير متداولة هناك أمر طبيعي جداً، ولا يلغي التواصل ولا يلغي وحدة اللغة العربية، إذ لا يقاس على الجزئي والمحدود، إنما يقاس على الكلي والشامل.

وقول المشككين في استمرار العربية على ألسن أهلها باطل أيضاً، فما يزال المسلمون يتلون القرآن الكريم ويؤدون صلواتهم به ويعملون به في حياتهم الدنيا، ويفهمونه ويتعاملون على أساس منه، وما يزال مصدر ثقافة ووعي وتمسك بالدين والحياة، وليس معزولاً عن الحياة اليومية .

وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يزال الناس يحفظونها ويتداولونها ويتخذون منها نهج حياة. والشعر العربي الذي قيل في الجاهلية قبل ألف وسبعمئة عام ما يزال مقروءاً إلى اليوم، وكذلك الشعر الذي قيل في العهود التالية، يهتم به العربي سواء أكان مختصاً أو غير مختص، بل يحفظ بعضه حتى الأمي وينشده، ويعتز به، والإذاعات والفضائيات العربية تبث برامجها بالعربية، ويتلقاها العرب في أقطارهم العربية وفي العالم كله ويتواصلون معها.

إن قول المشككين في استمرار العربية مردود، وما تزال العربية إلى اليوم لغة الكلام والتواصل والعلم والكتابة والإبداع على مر الحقب، من الجاهلية إلى اليوم، وقد مرت بعهود من التطور والنضج والقوة، وما تزال تمر، على الرغم من كل الصعاب والعقبات.

إن العربية اليوم هي أقوى مما كانت عليه في عهد الجاحظ والمتنبي والمعري، فإذا كانت العربية قد استوعبت العلوم والمعارف والآداب في العصر الذهبي للعرب في العهد العباسي، وعبرت عن مقتضيات ذلك العصر، فهي اليوم تستوعب العلوم والمعارف والآداب في القرن الحادي والعشرين، وهي أكثر تطوراً وتنوعاً، وهي اليوم تعبر عن قضايا العصر ومشكلاته وهي أكثر تعقيداً، وليس عطاء أدباء هذا العصر أقل جودة من عطاء الأدباء في القرون الخالية، بل يفوقه، وهذا هو قانون التطور الذي هو قانون الحياة.

إن ما قدمه العلماء والأدباء والمفكرون والشعراء واللغويون والفنانون العرب في القرن الحادي والعشرين يفوق في الأهمية والمستوى كل ما قدمه أمثالهم طوال ستة قرون من بداية العهد الأموي إلى نهاية العهد العباسي، ولا ينكر هذا إلا متعصب للقديم، ومنكر لقيمة كل ما هو جديد، وهي نزعة راسخة في أعماق كثير من الناس، ولا بد من مراجعة هذه النزعة وتهذيبها وتعديلها بالدرس الموضوعي.

إن العربية تستوعب اليوم السياسة والفلسفة والطب وعلوم الاجتماع والأنتروبولوجيا والفضاء والذرة، وبها تكتب أعمال إبداعية في القصة والرواية والمسرح والشعر، وإليها تترجم مؤلفات في العلوم كافة من معظم لغات العالم، فتستوعبها، وأسلوب الكتاب اليوم من علماء وأدباء ومفكرين واضح وجميل وسلس وبعيد البعد كله عن التعقيد والتكلف.

وستتيح المعطيات الحضارية في القرن الحادي والعشرين إمكانية استمرار العربية وتوسعها وغناها ونضجها وتطورها، ولن تكون المعطيات الحضارية في هذا القرن عائقاً أمام العربية، ولن تكون العربية عائقاً أمامها، إن انتشار الحاسوب سيساعد على إتقان العربية، بما تتوافر في الحاسوب من برامج تعالج الكتابة، وتصحح الأخطاء، وبما توفره الشبكة العالمية من إمكانية التواصل

مع العالم كله والاتصال بالعلماء والباحثين والتواصل بين الأشقاء العرب، وبما توفره بيسر وسهولة الأقراص الليزرية من كتب ومصادر ومراجع، تضعها بين أيدي القراء والباحثين والمفكرين بتكلفة زهيدة جداً، وتوفر عليهم الوقت والجهد، وبما يوفره الحاسوب نفسه والشبكة العالمية من إمكانية التأليف والنشر والتواصل بسرعة ومن غير عوائق ولا حدود ولا حواجز.

كذلك ستساعد الفضائيات على نشر العربية، وترسيخها، وتحسين أدائها، بما تبثه من برامج منوعة، من سياسية وثقافية وفنية وأدبية ودينية، ستصب كلها في النهاية في بحر العربية، على الرغم مما قد يكون في بعض هذه الفضائيات من عثرات أو انحراف أو أخطاء، وهي بما قد يكون فيها من مثل هذا سوف تنبه الوعي، وتحرض على ما هو أفضل وأجمل.

وقد يحتج بعض المشككين أو بعض الغيورين بأخطاء شائعة على الألسن، ولكن اللغة لا تقاس بعدد الأخطاء التي يقع فيها متحدث أو صحفي أو مذيع أو أديب، في صحيفة أو إذاعة أو قناة فضائية، إنما تقاس اللغة بالإنتاج الثقافي، إذ ليست اللغة مفردات أو جملاً أو مصطلحات فحسب، إنما هي ثقافة وإبداع، وعلى مر العصور منذ الجاهلية إلى اليوم كان اللحن يقع في كلام العرب، وكتب اللحن وأخطاء العامة كانت توضع، وكان العلماء واللغويون دائماً يصححون أخطاء الناس، بل أخطاء الكتاب أنفسهم، مما يعني أن الخطأ واقع لا يكاد أحد يسلم منه، أو مما يعني تشدد اللغويين ولا سيما المتزمتين، وربما كان هذا من خصائص العربية نفسها، لأنها لغة معربة، وعلى ذهن المتكلم أن يفكر إلى الأمام في قفزة نوعية ليعرف ما سيقوله، فهو سيفكر في المعدود المتأخر وهو "كُتُب" مثلاً ليلفظ كلمة متقدمة وهي ثلاثة، فينطق: "ثلاثة كتب"، ولكن في حالات كثيرة يتوهم المتشدد وجود خطأ حيث لا خطأ، ولاسيما حين يطلع على لهجات القبائل، وما فيها من خصائص يميز بعضها من بعضها الآخر، وهو ما يسمى بالشوارد، تشبيهاً لها بالحيوانات غير الأليفة الشاردة في البراري، مما يصعب صيده، وقد أشار المتنبي إلى استعماله بعض هذه الخصائص في اللهجات وكان ضليعاً بها، فقال:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

ويطغى على كثير من المناصرين للعربية أنفسهم التشاؤم والنعي والوقوف عند السلبيات والتغني بالماضي وتمجيده والظن أنه وحده العظيم والمتألق، ومرجع هذه النظرة إلى فرط غيرتهم على العربية، ورغبتهم في أن تكون على أقوى ما يمكن أن تكون عليه، لأن اللغة العربية لغة معيارية، تستند إلى قانون ثابت، ولا بد من الاحتكام إلى هذا القانون، والانطلاق منه، للحفاظ على العربية.

وأما أعداء العربية، فلا عتب عليهم، ولا لوم، وقد كانوا كثيرين، وكانت حججهم قوية دائماً، وكانت أعمالهم خطيرة وكبيرة، ولكن العربية كانت على مر العصور قوية، تتحدى كل العقبات، وتنتصر على الأعداء، وكانت دائماً في اتساع مثلها مثل هذا الكون، وسوف تبقى.

إن الأمر كله لا يتعلق بتشاؤم ولا تفاؤل، إنما يتعلق بإرادة شخصية، يقرر فيها الفرد أولاً أن يثقف نفسه، وأن يقرأ، وأن يطلع، ويستفيد من ساعات الفراغ، وهي كثيرة جداً، ولا ينتظر من الآخرين أن يقرروا بدلاً منه، إن المبادرة الفردية إلى التمسك بالعربية والأخذ بها علماً وعملاً وسلوكاً ونطقاً وتلفظاً هي المبادرة الخلاقة التي تؤكد حضور اللغة العربية وقوتها.

كما يتعلق الأمر أيضاً بالوزارات والمؤسسات الثقافية بما يمكن أن تضعه من برامج وخطط للنهوض بالعربية كإنشاء مراكز لمحو الأمية ومعاهد لتمكين العرب أنفسهم من حسن أداء العربية نطقاً وكتابة وتجويد اللفظ وتحسين الخط، ومؤسسات لرعاية المواهب الشابة ونشر الكتب والمؤلفات وطرحها بين أيدي الناس بأسعار زهيدة والتشجيع على المطالعة، وتيسير الدخول إلى الشبكة العالمية بتكلفة قليلة، واستصدار قرارات تمنع استخدام العامية في الإعلان والدعاية وفي أسماء البضائع والمحلات والفنادق والمطاعم، ولكن هذا كله وحده لا ينفع ما لم يرتبط بإرادة شخصية، وقرار فردي، ورغبة خاصة.

إن التكامل بين القرار الشخصي يتخذه الفرد، والقرار الاجتماعي تتخذه مؤسسة أو مؤسسات، هو ما يساعد حقيقة على تحقيق استمرار اللغة وقوتها ونهوضها، ولابد من هذا التضافر بين الفرد والمجتمع والتعاون، ولكن لا يصح انتظار الفرد حتى تتخذ المؤسسات الاجتماعية خطواتها، بل على الفرد أن يبادر، لأنه يتحمل المسؤولية، والفرد نفسه جزء من بنية المجتمع، ولو وعى كل فرد دوره ونهض به، لنهض معه المجتمع كله.

إن اللغة ظاهرة اجتماعية، تتجلى من خلال الأفراد، يمارسونها في حياتهم اليومية، وليست شيئاً معزولاً عن المجتمع، أو مستقلاً عنه، ونهوض العرب بلغتهم واهتمامهم بها وتمكنهم منها وتحسين أدائهم بها هو وسيلة من وسائل نهوضهم الحضاري.

إن التمكن من اللغة وامتلاكها وإتقانها يساعد على قوة التفكير وبلاغة التعبير، ويساعد على تلقي العلوم بها كافة، واستيعابها، والإبداع من خلالها، كما يساعد على ممارسة الحياة اليومية بدقة ووعي وحسن فهم، ويجعل المرء أقدر على فهم الحياة، واستيعاب الكون وإدراك معنى الحياة، وعيشها بعمق.

إن اللغة هي مظهر من مظاهر وعي الحياة بجوانبها كافة، من اقتصاد وسياسة وثقافة وفن وجمال، واللغة هي عنصر أساسي مساعد على تشكيل ذلك

الـوعي، ولا يكـاد يبـالغ المـرء إذا قـال إن الـتمكن مـن اللغـة وإتقانهـا وامتلاكهـا والتعمـق فـي أسـرارها يصـنع الـوعي ويبـدع الجمـال ويعمـق المعرفـة ويصـنع الحرية.

أ.د. أحمد زياد

محبك

أســـتاذ الأدب العربـــي الحـــديث

بجامعة حلب

العربية الفصيحة في كل بيت

ما سبل النهوض بالعربية الفصيحة؟ كيف يمكن رفع مستوى أدائها والتعبير بها؟ وهل بالإمكان انطلاقها على كل لسان؟ هل من الممكن أن تكون وسيلة توصيل واتصال في قنوات التلفزيون العربية ؟ لعله من الضروري قبل تقديم أي جواب عن تلك الأسئلة طرح سؤال آخر، وهو: لماذا هذا الحرص كله على العربية الفصيحة؟

- ١ -

يزعم بعض الناس أن اللغة محض وعاء أو أداة للتعبير، وأن المهم في الأمر كله هو المعاني والأفكار، ويزعمون أنه تكفيهم قدرتهم على توصيل مالديهم من أفكار إلى الآخرين، ولا قيمة بعد ذلك لأداة التوصيل، أي لاقيمة في زعمهم للّغة، ويقولون في ذلك: الأفكار قبل اللغة. ومثل ذلك الزعم بحاجة إلى قدر غير قليل من النقاش، لأنه شاع لدى بعض المثقفين، وأثّر في جيل من الشباب، وترك آثاراً سلبية في لغتهم.

إن اللغة ليست أداة للتفكير، ولا وعاء للتوصيل، أي إنها ليست جزءاً مستقلاً أو منفصلاً عن التفكير والتعبير، فهي مثلاً ليست كالريشة بالنسبة إلى الرسّام، ولا كالقلم بالنسبة إلى الكاتب، فالقلم هنا أداة، والريشة أداة، ولا قيمة للأداة، لأنها تظل خارج العمل، ولا تدخل فيه، فلا قيمة مثلاً للقلم إن كان من ذهب أو نحاس أو رصاص، ولا قيمة للريشة إن كانت من حرير أو ليف أو كتان، وهذا هو مفهوم الأداة، التي تظل خارج العمل ولا تدخل فيه، وإنما القيمة للألوان وتدريجاتها ومستوياتها، بالنسبة إلى الرسام، وإنما القيمة للكلمات والجمل والعبارات بالنسبة إلى الكاتب، فاللون وسيلة، والكلمة وسيلة، والوسيلة هي التي تصنع العمل وتدخل فيه وتمثل حضوره، والقيمة كل القيمة للكلمات وطريقة استخدامها، والقيمة كل القيمة أيضاً للألوان وأسلوب التعامل معها.

ومن هنا، ليست اللغة وعاء للتفكير، ولا أداة للتعبير، وإنما هي وسيلة، أي إن اللغة هي جزء لايتجزأ من عمليتي التفكير والتعبير، واللغة ليست قبل التفكير ولا بعده، وكذلك ليست قبل التوصيل ولا بعده، بل هما نسيج واحد، فالتفكير لايكون إلا باللغة، واللغة هي بحد ذاتها شكل من أشكال التفكير، وهذه الثنائية لاوجود لها إلا في حالة الدرس والتأمّل.

إن الإنسان عندما يفكر، أو ينفعل، فإن تفكيره يكون بوساطة اللغة، ومن خلالها، وكذلك عندما ينفعل، ويشهد على ذلك ماينذّ عن المرء من ألفاظ قد لايقصدها في حالة الانفعال، لأنها تجسيد حيّ لانفعاله، ويشهد على ذلك أيضاً أن

بعض الأشخاص يفكرون بصوت مسموع، أي يهمسون بالأفكار، ويرددونها، وهي ماتزال تدور في أذهانهم.

وبالمقابل ، لايمكن أن ينطق الإنسان بكلام لامعاني فيه ولا أفكار.

ومن هنا جاء تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق، وليس المقصود بالنطق محض النطق، إنما المقصود به التعبير اللغوي الحامل للفكر والانفعال والدال عليهما.

وكذلك اللغة، ليست محض أصوات وألفاظ وكلمات وحروف، وإنما هي أفكار وانفعالات ومواقف وتاريخ وحضارة ومعرفة، بالإضافة إلى كونها وسيلة تواصل واتصال وتعلم وتعليم.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: " اقرأ، باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ، وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم " (سورة العلق الآيات ١-٥). ففعل القراءة، هو فعل تعلم وإدراك للعالم والكون، وهو لايكون إلا باللغة، يؤكد ذلك القلم، الذي هو رمز اللغة التي يكون بها التعليم. ويؤكده أيضاً قوله عزّ وجل: " وعلّم آدم الأسماء كلها " (سورة البقرة الآية)، أيّ عرفه إلى الكون والكائنات من خلال أسمائها، أي إن التعليم كان بوساطة اللغة، وتحديد كل مسمى باسمه.

ومن هذا كله يتضح أن اللغة هي مجلى مافي النفس من أفكار ومعان وانفعال ووجدان، وأن مافي النفس أيضاً من وجدان وأفكار وانفعالات ومعان وقيم وأخلاق، لاتظهر إلا من خلال اللغة. وهذا يؤكد أن التأثر والتأثير متبادلان بين اللغة والتفكير، مثلما هما متبادلان بين العقل والجسم، فالعقل السليم هو الذي يقود إلى سلامة الجسد وصحته، وصحة الجسد وسلامته تقودان إلى سلامة العقل.

ومن هنا كان الحرص على اللغة العربية الفصيحة، لأنها جزء من الوجدان والانفعال والتفكير، تؤثر في هذه القوى كلها، وتتأثر بها، تصوغها وتصنعها، وتصاغ أيضاً من خلالها، وتُصنع بها. والحرص على اللغة العربية الفصيحة، لايعني محض الحرص على أصوات وألفاظ، إنما يعني الحرص على لغة ذات تاريخ وحضارة وقيم ومثل، وهي لغة لها خصائص ومقومات وصفات، وهي لغة لها معان ودلالات وإيحاءات. وامتلاك اللغة والتمكن منها، لايعني إتقان قواعدهافحسب، إنما يعني معرفة تاريخها وأدبها وأشعارها ونصوصها الإبداعية، ومعرفة أرضها وشعبها.

إن نضج اللغة على لسان الناطق بها، يعني نضج معرفته بالأمة والتاريخ والشعب والأدب والدين والجغرافية، لأن اللغة هي مخزون هذا كله. والناطق باللغة، سيكون تفكيره مصوغاً وفق ذلك الرصيد الكبير للغة التي ينطق بها، بما في ذلك الرصيد من تاريخ وأدب وشعب وأمة وجغرافية. وعندما يدعو أحدهم

إلى التقليل من أهمية اللغة، ويقول: " هي محض وعاء للتعبير، ولا يهمني منها شيء، وحسبي القدرة على توصيل أفكاري، سواء بالعامية أم الفصيحة ". فإن مثل تلك الدعوى تقيم فاصلاً بين اللغة والتفكير، وهو فاصل غير علمي وغير صحيح، وهي دعوة تصنع ثنائية غير علمية، ولا وجود لها في الحقيقة، فهي دعوة باطلة.

وإن مثل تلك الدعوة بعد ذلك تشوّه اللغة، وتكسرها، وتحطمها لدى المتكلم، وتعزله عن أمته، وتاريخه وحضارته، وتبعده عن انتمائه وحسّه وشعوره الصحيح، وتجعله خارج السياق الحضاري والمعرفي لوجوده، وتحرمه من أنماط التعبير السليمة والعميقة التي تمتلكها لغته، لتضعه أمام انكسارات أو أخطاء لغوية، لايمكنها بحال من الأحوال أن تكون أقدر على التعبير، كما يتوهم الواهمون.

إن اليومي في اللغة والدراج فيها والعادي والمألوف، بما فيه من تفكك، وضعف، وبما فيه من تشوش، وعدم انضباط، وبما فيه من فقر وقلة في الألفاظ والجمل والتعابير، لايمكن أن يكون ذلك كله بديلاً من الفصيحة، بما فيها من وفرة في الألفاظ، وغنى في الجمل والتراكيب، وبما فيها من دقة وضبط ونظام، وبما فيها من صحة وسلامة، وبما فيها أيضاً من جمال.

ويكفي أن نجري هنا مقارنة بين نصين شعريين، أحدهما بالعامية، والآخر بالفصيحة، لنرى الفارق، بينهما، وفيما يلي النص الأول وهو بالعامية :

يامالك الروح يا ولفي الوفي	اش راك	(أي شيء رأيك= مارأيك؟)
أنا اللي بمحبتك والله ماريد	اشراك	(إشراك = مشاركة)
جاني خصم مفتري ناصب علي	شراك	شراك = فخاخ جمع شرك)
قصده الغدر يعتدي فوق الوفا	وتمن	(وتمنّى) .
أن نعيش بكدر وأنت علينا	تمن	(تمنّ علينا: تُدِلُّ علينا بالعطاء)
وتبيعني ياقمر بالسوق بأرخص	تمن	(ثمن = سعر).
وأنا بروحي ودمي ياجميل	أشراك	(أشتريك)

وواضح مافي هذا الموال الشعبي من ركاكة وتكلف، واعتماد على التلاعب اللفظي، وواضح مافيه أيضاً من ضعف في الخيال والصور.

وخلاف ذلك كله مانجده في الأبيات الآتية للشاعر ابن الفارض :

قلبي يحدّثني بأنك متلفي	روحي فداك عرفت أم لم تعرف
مالي سوى روحي وباذل نفسه	في حب من يهوى ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتني	ياخيبة المسعى إذا لم تسعف
يا أهل ودّي أنتم أملي ومن	ناداكم يا أهل ودّي قد كُفي
عودوا لما كنتم عليه من الوفا	كَرَماً فإني ذلك الخلُّ الوفي

وحيـــاتكم وحيـــاتكم قســـماً وفـــي عمـــري بغيـــر حيـــاتكم لـــم أحلـــف
لـــو أن روحـــي فـــي يـــدي ووهبتهـــا لمبشـــري بقـــدومكم لـــم أنصـــف

ولا يمكن أن تمتلك اللغة اليومية من العمق التاريخي، والايحاءات الدلالية، والانفعالات الوجدانية، مثل ماتمتلكه العربية الفصيحة.

كذلك، لايمكن أن تحقق اللغة اليومية العادية التواصل الحق بين الإخوة العرب في أقطار وطنهم العربي، بل إن تلك اللغة اليومية تعزل الأخ العربي عن أخيه العربي، وتبعده عنه، ولا يستطيع من خلالها التواصل معه، بالإضافة إلى أنها تقطعهما كليهما عن تاريخهما وشعبهما وحضارتهما، وتحرمهما الانتماء إلى العروبة والإسلام.

إن العربية الفصيحة هي وحدها القادرة على تحقيق التواصل بين العربي والعربي، في كل بقعة من بقاع الوطن العربي، وفي كل صقع من أصقاع العالم، وهي القادرة على توحيد مشاعرهم وأفكارهم، وتوحيد وجدانهم وحسهم التاريخي والحضاري والمستقبلي، بخلاف اللهجات العامية التي تحطّم ذلك كله.

- ٢ -

ومن هنا تظهر خطورة الدعوة إلى القول بأن اللغة محض أداة، وأنه من الممكن التعبير بأي شكل كان من أشكال اللغة، وأن القيمة للأفكار وأن اللغة لاقيمة لها. إن هذا القول يقف في الظاهر عند اللغة، ولكنه يتجاوزها في الحقيقة إلى الأمة الناطقة باللغة، فيحرمها شخصيتها، لأنه يعزل لغتها عن تاريخها وبنيتها وحضارتها، ويحطم طبيعتها وخصوصيتها، وإذا فقد شعب مايميز لغته من غيرها من لغات العالم، فقد في الحقيقة هويته وشخصيته.

ومما لاشك فيه بعد ذلك أن مثل تلك الدعوات قد ظهرت مرات كثيرة، وبأشكال مختلفة، في تاريخ اللغة العربية، ولكن اللغة العربية صمدت أمام تلك التحديات، وظلت محافظة على خصوصيتها، واستطاعت دائماً أن تواكب التطور الحضاري، وأن تكون وسيلة حية، للتعبير عن كل المواقف والمواضيع والإشكالات، وأن تكون وسيلة حية لتوصيل العلوم الحديثة كلها، من طب وهندسة وفلك وذرة ومعادن وفلسفة وسياسة واجتماع، كما ظلت دائماً معبرة عن الشعب العربي، وحاملة لهويته وشخصيته، وصانعة لوجدان العربي وروحه ووعيه، بل ظلت جزءاً لايتجزأ من الشعوب الإسلامية، تتعلمها، وتتثقف بها، لا لتؤدي بها العبادات فقط، وإنما لتمتلك أيضاً من خلالها المعرفة والثقافة والحضارة.

ومما لاشك فيه أن الذي حفظ اللغة وصانها، وحقق لها تلك الخصوصية، وأكد دائماً ارتباطها بالشعب العربي، والشعوب الإسلامية، وجعلها دائماً حية

نامية متطورة، تعيش في العقل والقلب والوجدان، وتتنال على اللسان، وتصنع العلم والحياة، بل منحها بالإضافة إلى ذلك كله القداسة، هو القرآن الكريم.

وبقدر ماكان ذلك كله حقيقة واقعية على مرّ التاريخ، بقدر ماكانت أساليب التحدي والمؤامرة ومحاولة اختراق اللغة العربية، وصنع الفواصل بينها وبين الشعب العربي، وبينها وبين الشعوب الإسلامية.

إن القرآن الكريم دائماً هو الحجة، والمرجع، في الفصاحة والبيان والجمال، وهو الحي دائماً، صلاة وتلاوة وأداء، وهو الذي نشأت من حوله علوم اللغة من نحو وصرف وإعراب وبلاغة وعلم أصوات ورسم وإملاء وتطورت في ظله الخطوط، ولأجله جمعت اللغة العربية، من أفواه الناطقين بها من القبائل، ولأجله وضعت كتب اللغة، وصنفت المعاجم، ولأجله وضعت كتب التفسير، وهو وسيلة علم وتعلم، وهو وسيلة عبادة وصلاة، وهو وسيلة عيش وحياة، فيه القانون والتشريع، ومصدر القيم والمثل والأخلاق، ومنبع الحكمة، وهو قبل ذلك كله كلام الله، فليس كمثله شيء، وبتلاوته يجد المسلم حلاوة البيان، ويحس روعة الكون، ويدرك قدرة الخالق، ويشعر كأنه بين يديه، يسمعه ويناجيه، ويصلي إليه ويدعوه.

ومن هنا تظهر الدوافع الكامنة لدى أعداء العروبة والإسلام من القائلين إن العرب أخذوا البلاغة والنحو عن اليونان، أو غيرهم من الشعوب، فهم إنما يريدون بذلك التشكيك في الحضارة العربية الإسلامية، وفي مصدرها الأول وهو القرآن الكريم. وبعد العربي عن العربية الفصيحة، هو بعد عن القرآن الكريم، وبعد عن إسلامه وعروبته، وبعد عن تاريخه وحضارته، وبعد عن شقيقه العربي، وأخيه المسلم، وتشويه لشخصيته وهويته.

ولقد وعى ذلك العرب ممن هم على الديانة النصرانية، فتمسكوا بعروبتهم، ونافحوا عن الإسلام، وأدركوا أن العروبة والإسلام صنوان، واعتزوا بالقرآن الكريم نفسه، ودرسوه، ليرسخوا تمكنهم من العربية، وليؤكدوا انتماءهم إلى الأمة، ومنهم ميخائيل نعيمة وناصيف اليازجي وابراهيم اليازجي والشاعر القروي وجاك صبري شماس وعبدالله يوركي حلاّق، وغيرهم.

يقول الشاعر جاك صبري شماس :

إنـــي مســـيحي أَجِـــلُّ محمـــدا ... وأَجِـــلُّ ضـــاداً مهـــدها الإســـلامُ
وأُجِـــلُّ أصـــحاب النبـــيّ وأهلـــه ... حيـــثُ الصـــحابةُ صـــفوة ومقـــام
كحلـــت شـــعري بالعروبـــة والهـــوى ... ولأجـــل طـــه تفخـــر الأقـــلام
أودعـــت روحـــي فـــي هيـــام محمـــد ... دانـــت لـــه الأعـــراب والأعجـــام

هذا هو سرّ الحرص على العربية الفصيحة، وسبب الغيرة عليها، والدعوة إلى الحفاظ عليها، والاستمرار بها حاضراً ومستقبلاً، وفي مجالات الحياة كلها، لأنها وسيلة التفكير السليم، ووسيلة تحقيق الشخصية، ووسيلة تأكيد الهوية، وليس المقصود بالوسيلة الأداة التي تسقط وتستبعد، إنما المقصود المادة والعنصر والجسد الذي يتحقق به الوجود، كاللون بالنسبة إلى اللوحة، والصوت بالنسبة إلى الكلمة، والماء بالنسبة إلى القطرة.

والحرص الحق على العربية الفصيحة لايكون في الكتب والمجلات والصحف فحسب، ولا يكون في المدارس والجامعات فقط، فهذا أمر بديهي وعادي جداً، إنما الحرص عليها يكون في جوانب الحياة كافة، لأن الثقافة الحق لاتتمثل في المدرسة والجامعة، وإنما تتمثل في جوانب الحياة كافة.

إن المدارس والجامعات قد تعلم العربية الفصيحة، ولكنها ليست قادرة وحدها على نشر العربية الفصيحة وتحقيق ذيوعها في أوساط الناس، لأن العربية الفصيحة لاتتحقق إلا بالممارسة اليومية الحية، وفي الواقع المعيشي، وهنا تظهر وسائل الإعلام الأكثر قدرة على تحقيق انتشار العربية الفصيحة، ولا سيما من خلال التلفزيون.

وإن المرء ليعجب حين يقارن بين تعليم العربية وتعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي نفسه، إذ يجد المرء في تعليم اللغات الأجنبية الحرص الشديد على نطق حروفها وإخراجها من مخارجها الإخراج الصحيح وكذلك الحرص على قواعدها، ولا يجد المرء شيئاً من ذلك في تعليم العربية، ولا سيما في النطق والأداء والإلقاء.

ويحتج هنا بعض الناس بأنهم عرب ويعرفون العربية وحسبهم أنهم – كما يزعمون – قد سمعوها عن آبائهم وأجدادهم وأنهم ينطقون بها وبها يقرؤون ويكتبون وأنها تجري على ألسنتهم على السليقة، وفي الحقيقة لايكفي للمرء أن يسمع لغته ويتكلمها وأن يكتب بها ويقرأ ليكون عارفاً بها، بل لابد له من درسها ومعرفة قواعدها والاطلاع على أساليبها، والتمرّس بآدابها وفنونها، حتى يجيدها، والأمر في هذا المجال لايخص اللغة العربية وحدها، بل يشمل لغات العالم كافة، لأنه قانون اجتماعي لغوي عام.

- ٤ -

ولعل أشد مايجب أن يكون الحرص على العربية في وسائل الإعلام المرئية، والمقصود بها التلفاز خاصة، ولا سيما قنواته الفضائية، فبالعربية الفصيحة يمكن أن تكون نشرات الأخبار، وبالعربية الفصيحة يمكن أن تكون المسلسلات العربية، والأفلام العربية، بل المسلسلات الأجنبية والأفلام الأجنبية، فبدلاً من ترجمتها وكتابة الترجمة، تكون الترجمة منطوقة بالعربية الفصيحة،

فيسمعها المتلقي، فيستمتع بالعرض، ويستمتع باللغة، وليس هذا بالأمر العسير، بل هو أمر يتيح للممثلين فرصاً للعمل أوسع، ويتيح للمتلقين وسائل استمتاع أكبر وأجمل.

وقد يحتج بعضهم بأن العربية الفصيحة غير مناسبة للأفلام والمسلسلات، وهو كلام غير دقيق، وقد تقدّم الحديث عن غنى العربية الفصيحة، وقدرتها على التعبير، وهي لاشك أكثر إيحاء، وأكثر جمالاً، وأكثر تأثيراً من العامية، بالإضافة إلى قدرتها على نشر المسلسل وتوزيعه في أقطار الوطن العربي كافة، وقدرتها على تحقيق التواصل بين الأشقاء العرب.

ولقد أثبتت بعض المسلسلات الأجنبية المترجمة بالصوت إلى العربية الفصيحة قدرتها على التوصيل والتأثير في شرائح المجتمع كافة، من كبار وصغار، وأميين ومثقفين، كما أثبتت قدرة العربية الفصيحة على التعبير عن المواقف كلها، من جادّة وهازلة، واجتماعية وتاريخية وواقعية.

وقد يحتج آخرون بأن الواقعية في الفن تقتضي أن يتكلم الممثل في المسلسل كما يتكلم في الواقع، ولكن هذا الفهم للواقعية غير صحيح، فالواقعية لاتعني نقل الواقع كما هو، إنما تعني إعادة تركيبه وبنائه، وفق قانون الاختيار والانتقاء، في الشخصيات والحوادث والمواقف، وكذلك في اللغة، وإذن فاللغة التي تتكلمها الشخصية في المسلسل لايمكن أن تكون هي اللغة نفسها التي تتكلمها في الواقع، ولا بد أن تكون لغة فنية، قوامها الانتقاء والاختيار وإعادة البناء والتركيب، لتكون معبرة عن مزاج الشخصية وأفكارها، أي إنها لغة فنية، وفي هذه الحال تكون العربية الفصيحة هي المرشحة، وليس اللهجة العامية.

ومما لاشك فيه أن المقصود بالعربية الفصيحة في الحالات كلها ليس اللغة الوعرة القاسية الصعبة، ولا اللغة القائمة على التفيهق والتقعر والوحشي، إنما اللغة التي عمادها البساطة والسلاسة والسهولة، وقوامها العفوية والصدق، هي في الحالات كلها لغة الفن.

والأمر لا يتوقف بعد ذلك عند الأفلام والمسلسلات العربية أو الأجنبية، بل يتجاوزه إلى الأغنيات والدعايات، وهذه فيما يبدو أكثر أهمية، لأن المتلقي يحفظ كلماتها مع اللحن والنغم، وتصبح جزءاً من مخزونه اللغوي والثقافي، ولذلك يبدو من الضروري جداً أن تكون الأغنيات ولا سيما أغنيات الإعلان بالعربية الفصيحة.

وليس هذا بالمطلب الصعب، فكل الأغنيات الوطنية بالعربية الفصيحة، وكثير من الأغنيات الوجدانية والعاطفية بالعربية الفصيحة، ولا سيما ماشدت به من قبل أم كلثوم، وغناه محمد عبدالوهاب، فلقد كانت قصائد شعرية لأحمد شوقي

وابراهيم ناجي وأحمد رامي والأخطل الصغير، وعبدالله الفيصل، وكانت قصائد صعبة، طويلة، وقد تلقاها الجمهور آنئذ، وكان التعلم أقلّ انتشاراً.

ولذلك تبدو الحاجة الأكبر إلى الأغنية بالعربية الفصيحة أشدّ أهمية وأكثر ضرورة، ومثل هذه الأغنيات هي التي تؤكد وحدة الشعب العربي في ماضيه وحاضره ومستقبله، مثلما تؤكد وحدته في عواطفه ووجدانه ومشاعره.

ومن الغريب مايشيع من دعوات مناقضة، تلحّ على إقليمية الأغنية، فتدعو إلى أغنية هذا البلد أو ذاك، بل تدعو إلى أغنية هذا الجزء من البلد الواحد، بدعوى المحلية، حتى ظهرت دعوات إلى أغنية السهل، وأغنية الجبل، وأغنية البحر، وأغنية البادية، ومما لاشك فيه أن ذلك مقبول، بل مطلوب، على مستوى اللحن والنغم، والإيقاع والوزن، وعلى مستوى الفكرة والمعنى، والعاطفة والشعور، ولكنه ليس مطلوباً على مستوى الكلمة واللغة، وإلا فإن الأمر لن يقود إلى التنوع والتعدد، وإنما سيقود إلى العزلة والانفصال.

إن الأغنية بالعربية الفصيحة هي الأغنية القادرة على اختراق الحدود، وتجاوز الأبعاد، والوصول إلى العربي في كل مكان، وتحقيق وحدة الروح والفكر والوجدان والشعور بين أبناء الأمة الواحدة، وهي القادرة على تحقيق الشهرة، وسعة الانتشار، وما ذلك على العربية بعسير، تؤكد ذلك قصائد كثيرة معاصرة ، لحنت وغنيت أيضاً لنزار قباني ومحمود درويش وبدوي الجبل ومحمد مهدي الجواهري، وهي كلها بالعربية الفصيحة، وقد استطاعت أن تحقق انشتاراً واسعاً في أقطار الوطن العربي.

- ٥ -

ولا بد للمرء بعد ذلك أن يقدّر لقنوات التلفزيون العربية حرصها على العربية في نشرات الأخبار، وفي البرامج العلمية، وفي برامج الأطفال، ولعل في هذا شاهداً يؤكد قدرة العربية على أن تكون وسيلة توصيل واتصال، فلماذا لاتكون كذلك في البرامج والمواد التلفزيونية كلها؟

ومن الممكن بعد ذلك إعداد برامج في التلفزيون، تعلّم الناس العربية، وتحببهم فيها، وتطلعهم على فرائدها وخصائصها وأساليبها التعبيرية والبلاغية، وتؤكد لهم قدرتها على متابعة العصر، علماً وحضارة وتقنية.

ولكن، يظل أسلوب اللهو والتسلية واللعب، من أكثر الأساليب وصولاً إلى الجماهير العريضة، والأكثر تأثيراً فيها، والأقدر على تسريب مايراد تسريبه إليها، ويتمثل ذلك الأسلوب في الأفلام والمسلسلات والمسابقات والأغنيات والمنوعات والطرائف، فلماذا لاتكون كل هذه الأشكال بالعربية الفصيحة، ولماذا لايكون من خلالها تحقيق الممارسة الحيّة للغة العربية الفصيحة، ولماذا لايكون من خلالها تحبيب الناس بلغتهم العربية الفصيحة ؟

إن المرء ليأسف عندما يرى فيلماً أو مسلسلاً ضعيفاً في فكره وفنه وأسلوبه ولغته، على الرغم مما يكلف من مال ووقت وجهد، ويسأل المرء نفسه، لماذا لايوظف ذلك كله فيما هو أرقى وأفضل وأكثر قوة، حتى في مجال الفكاهة والكوميديا.

ومن الضروري التوضيح هنا أنه ليس المقصود بهذا القول أي قناة تلفزيونية عربية، أو غير عربية، وليس المقصود الحكم على ماكان، إنما المقصود من هذا الكلام كله هو التوجه إلى المستقبل، وإلى مايمكن أن يكون من برامج تلفزيونية.

وإن النهوض بالعربية الفصيحة من خلال التلفزيون لتكون قوية ناهضة على ألسن الناس عامة، هو مطلب حضاري، لأن نضج لغة المرء، هو دليل على نضج عقله، وتملكه اللغة يمنحه القدرة على التفكير الصحيح، ويمنحه القدرة على التعبير القوي الفاعل المؤثر، إن النهوض باللغة على ألسن الناطقين بها ليس أمراً مقصوداً لذاته، إنما هو أمر مقصود لأجل تحقيق مستوى من الثقافة لدى الناس كافة، ولتمكينهم من قوة التفكير، وقوة التعبير، ولمنحهم الثقافة، وترسيخ انتمائهم إلى أمتهم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، والحفاظ على هويتهم وشخصيتهم، وتحقيق وعيهم لذاتهم ولحضارتهم ولشخصيتهم، وهم باللغة بعد ذلك يتعلمون، وبها يحسّون وبها يعبرون، وكلما نضجت اللغة على ألسنتهم، وفي وعيهم ووجدانهم وضميرهم، نضج بالمقابل تفكيرهم، ونما شعورهم، وقوي إحساسهم، وسار بهم نحو الأرقى والأفضل.

إن اللغة هي الحضارة، وقوة اللغة شكل من أشكال قوة الحضارة، وكذلك قوة الحضارة لايمكن أن تكون إلا بقوة اللغة.

ولقد آثرنا وصف العربية بالفصيحة، لأن هذا الوصف يدل على صفة ثابتة فيها، وهي صفة أكيدة وقوية ولاصقة، وتركنا الوصف بالفصحى، لأن هذه الصيغة تدل على التفضيل، وهي تكاد توحي بأن هناك عربية أقل فصاحة وأخرى أكثر فصاحة.

وإذا كان تمّ الوقوف في هذه الدعوة عند التلفزيون، في معظم برامجه، ولا سيما المسلسلات، فلأنه الأهم والأخطر، ولأن التعليم في المدارس والجامعات لايمكن أن يكون بالعامية ألبتة، ولأن الصحف والجرائد والمجلات لايمكن أن تكون بالعامية أيضاً، ولكن معظم برامج قنوات التلفزيون يمكن أن تكون بالعامية، ولا سيما البرامج الأكثر تأثيراً، وهنا تكمن الخطورة، ولا سيما حين يذكر المرء أن التلفزيون هو الأكثر وصولاً إلى جماهير الشعب العربي، والأكثر تأثيراً فيها، فهي في معظمها تعاني من الأمية، ولا تقبل على القراءة، وتعنى بالتلفزيون، وهو الذي يحظى منها بالوقت والاهتمام.

ومن هنا تبدو أهمية العناية بالعربية الفصيحة في برامج التلفزيون، لأنه متغلغل في داخل كل بيت، ومتسرب إلى كل نفس، من أميين ومثقفين، وشباب وشيوخ، وحين تتم العناية بالعربية الفصيحة في قنوات التلفزيون العربي، تتم العناية عندئذ بالشعب العربي، في مستوياته كافة، وفي أقطاره كلها، كما يتم تحقق العربية في الواقع اليومي، ويتم الارتقاء بها، في جوانب الحياة كافة.

إن التلفزيون قادر على فعل ما تعجز الجرائد والصحف والمجلات عن فعله، بل هو قادر على فعل ماتعجز المدارس والجامعات عن فعله، فإذا تمت العناية الصحيحة به، تمت العناية بالمجتمع كله، وتكاملت عندئذ المهمة، وتمّ أداء الأمانة، في المدرسة والصحيفة والمنزل، وإلاّ، فإن التلفزيون سيكون له دور آخر مختلف.

هي دعوة إلى العربية الفصيحة، والمرجو أن تتحول إلى قرار وفعل، ولا تبقى مادة مكتوبة على الورق، وليس ذلك بالأمر العسير، مع وجود الرغبة والإرادة، ويبقى دائماً الأمل.

أهمية المشافهة في تعليم العربية

ما أهم المناشط في تعليم اللغة العربية؟ هل تكفي القراءة والكتابة وسيلة لتعليم العربية؟ هل هما أهم من المحادثة أو الاستماع مثلاً؟ هل الكتاب والملخصات والمدونات هي الوسيلة المثلى لتعليم العربية؟ لماذا غاب الاختبار الشفهي عن الامتحانات؟

ليست اللغة حروفاً وكلمات مكتوبة، ولا صحفاً وأوراقاً، إنما هي في المقام الأول ألفاظ منطوقة، وأصوات مسموعة، ثم جاءت الحروف والكلمات، والجمل والعبارات المنضودة في الصحف والأوراق، رموزاً تدل على اللغة. ويتعلم المرء اللغة أول مايتعلمها أصواتاً وألفاظاً منطوقة، من خلال المحادثة والاستماع، ويظل يمارس اللغة على هذا النحو مدة من الزمن، ثم يتعلمها حروفاً وكلمات، فيمارس القراءة والكتابة، ولكنه لاينقطع عن تعلمها محادثة واستماعاً.

والتعليم الحق لايكون في الواقع إلا بهذه المهارات الأربع، المحادثة والاستماع والقراءة والكتابة، ويؤكد معظم الدارسين أولوية المحادثة والاستماع، لأن اللغة في طبيعتها وسيلة اتصال بين الناس من خلال اللفظ والصوت، قبل أن تكون وسيلة كتابة بالحرف.

ويتضح ذلك في اللغة العربية، فقد كانت في معظمها لغة شفاهية، تقوم على الصوت قبل الكتابة، والحفظ قبل التدوين، وهذا لايضيرها في شيء، بل هو خصيصة تميزها. ويؤكد ذلك النصوص الأدبية التي تجلت فيها تلك اللغة، والمقصود بتلك النصوص الشعر، الذي كان يتم تناقله شفاهاً بالحفظ والرواية من جيل إلى جيل على مايزيد عن مئتي عام قبل الإسلام ومئة عام بعده، إلى أن كان التدوين، وما كان يدون من قبل فهو نادر جداً، وقليل، بل كان لايدوّن إلا لقيمة فنية واجتماعية واعتبارية معينة، كالوثائق والعهود والرسائل.

ثم نزل الوحي الأمين على محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم شفاهاً، وتلقاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم سماعاً وحفظاً، وليس في ألواح مكتوبة ولا رقم، وكذلك رتّله على أصحابه من حوله، وكذلك تلقوه بالسماع والحفظ في الصدور، لا في السطور، على الرغم من تدوينه. ولم يلجأ أبو بكر وعثمان رضوان الله عليهما، فيما بعد إلى جمع القرآن الكريم في مصحف وتوزيعه على الأمصار إلا للحفاظ على وحدة النص، وظل القرآن الكريم يتلى كما كان يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتلقاه الرجال ويسمعونه ويحفظونه، وفي أثناء ذلك كله، يتم الحفاظ على طبيعة الصوت واللفظ، كي يتلى

القرآن ويرتل ويجود تعبداً لله تعالى، وامتثالاً لأمره (ورتّل القرآن ترتيلاً) (سورة المزمل ٧٣ الآية ٤)، واتباعاً لسنة رسوله بتجويد تلاوة القرآن الكريم.

وهكذا يتمّ تعليم العربية، من خلال القرآن الكريم، بالسماع والنطق، عبر المشافهة والحفظ، وتلقي الرجال بعضهم عن بعض، حضوراً ومشافهة، وعندما جاء التدوين في مرحلة تالية وتنقيط المصحف وضبطه، إنما جاء لاليكون التعليم من المصحف المكتوب، إنما ليكون المصحف المكتوب بعلاماته ورموزه الكتابية معيناً على الحفاظ على اللفظ والنطق والترتيل والتجويد، وما يزال إلى اليوم.

وفي هذا ما يؤكد أهمية السماع واللفظ، والحفظ والمشافهة، وهذا كله من خلال القرآن الكريم الذي منح العربية خصوصية تميزها من غير شك. وإذا المسلم اليوم يتلو القرآن الكريم بأصوات حروفه وألفاظه وسكناته وحركاته ومدوده وإمالاته ووقفاته وترقيقه وتفخيمه وإدغامه وإظهاره وإقلابه كما كان يتلوه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون، على نحو من الأنحاء، يتم فيه الحفاظ على أصوات العربية.

ويؤكد ذلك على سبيل المثال أن العربي في مصر يلفظ الجيم في حديثه اليومي أقرب إلى الكاف المفخمة، ولكنه حين يتلو القرآن الكريم يلفظ الجيم كما يجب أن تلفظ. وكذلك أحرف من نحو الذال والظاء والثاء، قد يلفظها العربي في بعض الأقطار العربية بصورة غير صحيحة، ولكنه حين يتلو القرآن الكريم يلفظها على نحو مايجب أن يلفظها بوصفها أحرفاً لثوية.

ولم تكن المشافهة وسيلة لتواتر القرآن الكريم من جيل إلى جيل، بل كانت وسيلة لنقل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحفظ الشعر، وتدوين الأخبار والوقائع، ولذلك ظهرت مصطلحات من نحو: حدثنا فلان عن فلان، وسمعت فلاناً، وقرأت على فلان، وشاعت هذه المصطلحات في علم الحديث، وفي كتب الأدب واللغة، وفي كتب التاريخ والأخبار، وكان الخبر المروي شفاهاً وسيلة للتدوين والتأليف، وكانت المشافهة وسيلة لنهوض علوم كعلم الحديث واللغة والنحو والعروض والتاريخ. إن ماتعتز به علوم العربية حقاً هو نهوضها على المشافهة، أي على التعليم الذي يكون بلقاء الإنسان بالإنسان، وتواصله معه، عبر اللغة، ناقلة العلم، وليس من خلال الصحف والأوراق وحدها.

على أن هذا لايلغي قيمة الحرف والكتابة، ولا أهمية الصحف والأوراق، فقد دوّنت العلوم كلها، وتحولت إلى كتب، وافتتحت دكاكين الوراقين، وكان الكتاب يحمل على ظهور الإبل من المشرق إلى المغرب، ومن صقع إلى صقع، وتفنن الوراقون في رسم الحروف، وتزيين صفحات الكتاب بالرسوم، وكان المترجم يُمْنَحُ زنة كتابه ذهباً، وقد أشاد الجاحظ مطولاً بالكتاب، وقدّم وصفاً له، يدل على تقدير الحضارة العربية للكتاب. على أن هذا كله ظل مرتبطاً بالمشافهة،

ولم يقم الكتاب وحده بمهمة التعليم، بل كان وسيلة لها، وكان الأساس هو القراءة على الأستاذ، والاستماع إليه، وهو ما نسميه المحادثة والاستماع، وهو ما اختصرناه بالمشافهة، وقد ظلت المشافهة مستمرة إلى جانب الكتاب، وإذا دل هذا كله على شيء فإنه يدلّ على أن للسماع الأثر الكبير في حفظ العربية ونقلها من جيل إلى جيل.

وقديماً كان أجدادنا يأخذون على المتعلم أخذه عن الصحف وحدها، فيقولون عنه: صحفي، لأن التعليم الحق يكون بالجلوس إلى المعلمين في حلقات التعليم في المساجد، وبقراءة التلميذ الكتاب على أستاذه، في جلسات تمتد ربما أعواماً حتى يتم الكتاب الذي يقرؤه على أستاذه في حضور تلامذة آخرين، والقراءة تتضمن السؤال والجواب عن قضايا في الأدب واللغة والنحو والإعراب وجوانب العلم الذي يقرأ فيه، إن طبّاً فطب وإن رياضيات فرياضيات، وهكذا.

وإذا دلّ هذا على شيء فإنه يدل على ارتباط التعليم دائماً بالمشافهة، ولا يكون المتعلم متعلماً لمجرد إتقانه القراءة والكتابة، أي لمجرد معرفته الألفاظ والحروف، لأنها محض رموز تدل على اللغة، وليست اللغة نفسها، ولذلك كانت اللغة تسمى لساناً، لأن اللسان هو وسيلة النطق والتلفظ، وهو جزء أساسي في جهاز النطق، وكذلك كلمة اللغة نفسها في أحد الآراء، فما هي إلا من اللغو، الذي هو الحديث والكلام، ولذلك قالت العامة: العلم في الصدور لا في السطور، ساخرين ممن يجيد القراءة والكتابة ولكنه لايفقه العلم ولا يحفظه.

ولذلك درس أجدادنا جهاز النطق لدى الإنسان وحددوا مخارج الحروف، ووصفوها، وصنفوها، وتقدم هذا العلم لديهم، واكتمل، ووصلوا فيه إلى نتائج علمية محددة، من غير أن تكون لهم آلات رصد الصوت، وقد وُضِعت فيه عشرات المصنفات، وما يزال علماً حياً يتم تلقيه، تحت اسم علم التجويد. كما درس اللغويون مظاهر أخرى في الصوت كالإمالة والوقف، وما في الوقف نفسه من أشكال نطق مختلفة، كالروم والإشمام مثلاً، ووضعوا لها قواعدها وأصولها، مما يؤكد الحرص على تعليم النطق بالعربية والتلفظ بها وإجادة أصواتها.

ومن المؤسف تقصير العرب اليوم في مجال العناية بأصوات العربية ونطقها ولفظها في تعليمهم، ولا سيما الجامعي، وتحول التعليم فيها إلى قراءة نظرية في الصحف، وكتابة يؤديها الطالب في الامتحان من غير أن يقرأ أمام أستاذه، وفي حالات كثيرة من غير أن يستمع إلى إلقاء أستاذه، فأصبحت الكلمة المطبوعة وحدها الوسيلة إلى تلقي العربية، وصار المتخرج في قسم اللغة العربية، لايجيد القراءة، ولا يحسن الإلقاء، ولا يقدر على الأداء الصحيح لأصوات لغته وهو المختص بها، والمعلّم لها.

وربما كان مرجع ذلك إلى الأعداد الكبيرة للطلاب، وهو مالا يتيح للمدرس أن يستمع إليهم جميعاً، ولا يساعده على المحادثة معهم، ولكن هذا السبب على الرغم من قوته وليس مسوّغاً لغياب نشاط أساسي في عملية التعلم وهو المحادثة والاستماع، ليس في تعليم اللغة العربية وحدها، بل في تعليم العلوم كلها.

ومن المؤسف أن المقررات الجامعية في السنوات الأربع للاختصاصات كافة لايتضمن أي منها مقرر المحادثة والاستماع، أي لايتضمن مقرراً شفهياً له علامة مستقلة، ويعد مادة مرسبة. ولذلك أهمل الطالب مثلما أهمل المدرس على حد سواء أسلوب المحادثة والاستماع، واعتمد كلاهما على أسلوب التلقين والتدوين والملخصات واتخاذ الكتاب والمادة المكتوبة وسيلة للتعلم والامتحان والنجاح، بعيداً عن المحادثة والاستماع، أي بعيداً عن تكوين جهاز نطقي سليم للمتعلم، يجيد من خلاله أداء لغته أداءً فنياً صحيحاً، فلا يخطئ في نطق، ولا يغلط في لفظ، ولا يزل في إعراب.

إن الطالب في قسم اللغة العربية يتقن قواعد النحو، ويجيد الإعراب، ويحسن تقطيع بيت الشعر على الورق كتابة بالخط، ولكنه بعد ذلك لايجيد إلقاء بيت من الشعر، ولا يحسن قراءة بضعة أسطر، من غير أن يقع في عدة أخطاء، لأنه لم يتدرب على الإلقاء، ولم يمارس المحادثة، ولم يتقن فن الاستماع.

وبالنسبة إلى الامتحان فالأمر أكثر سوءاً، فهو امتحان كتابي، تختبر فيه معلومات الطالب كتابة، ويحقق الطالب النجاح بقدر مايعيد من أقوال المدرس وما يكرر من المادة التي دوّنها في أثناء إلقائه المحاضرة، وقد أتقن الطلاب هذه اللعبة، فأخذوا يصطنعون الأمليات والكراسات يضمنونها محاضرات المدرس، ليعيدوا في الامتحان ماقاله، وليحظوا بأعلى الدرجات، ثم لينسوا كل ماحفظوه.

وعندما يخفق الطالب، لايعرف لماذا أخفق، ولا يعرف أخطاءه، ولا تتاح له مراجعة أوراقه، ولا يتاح له محاورة مدرسه، والإصغاء إليه، ولا يستطيع المدرس أن يقف طلابه على أخطائهم، ومرجع هذا كله إلى وفرة الأعداد، وغياب عنصر المشافهة في التعليم.

ولقد تضمنت بعض المقررات مايسمى حلقات بحث، ولها في المقرر الواحد عشرون درجة من مئة، وتسميتها تدل على أنها مجال للبحث بإشراف المدرس وما يكون في الإشراف من محادثة وحوار واستماع وتوجيه نحو المصادر والمراجع ومخطط للبحث ينتهي بأوراق مكتوبة لها درجة مقدرة.

ونظام حلقات البحث يتيح في الحقيقة للطالب والمعلم معاً فرصة تحقيق المشافهة، محادثة واستماعاً وحواراً، كما يتيح فرصة التدريب على البحث والعودة إلى المظان والمراجع، ولكن هذا النظام تحوّل في الواقع إلى أوراق مكتوبة يقدّمها في نهاية الفصل الطالب للمدرس، من غير أن يداوم في بعض

الحالات، ولئن داوم على المحاضرات فإن فرصة إلقاء البحث والاستماع إليه ومناقشته لاتكاد تتحقق.

وهكذا خرجت حلقات البحث من الهدف المنشود منها، وهو المحادثة والحوار والاستماع، والتعرف إلى المظان والمراجع، والتدرب على الكتابة وفق مخطط وتبعاً لمنهج، فأصبحت محض وريقات مكتوبة، يجمع الطالب فيها معلومات من هنا وهناك، جمعاً بطريقة ما، ثم يتقدم بها إلى المدرس، ولا يكاد يحاوره فيها، وفي حالات كثيرة، يأخذ حلقة بحث من زميل له سبقه بسنة أو بعدة سنوات، ولا يستطيع المدرس أن يضبط هذا.

وفي معظم الحالات غابت عن العملية التعليمية المشافهة بين المدرس والطالب، وحلّ نظام التلقين والتدوين، وأخذت الكلمة المكتوبة مكان الكلمة المنطوقة، وما عاد الطالب يمارس المشافهة في تعلمه.

إن المحادثة تعلم الطالب تنظيم أفكاره، وإعدادها، قبل النطق بها، كما تنمّي فيه حسّ البداهة، والمبادرة، وسرعة الاكتشاف، وتعوّده على حسن الأداء، وسلامة النطق، وقوة التعبير، كما تدربه على تطبيق قواعد الإعراب، وتعلمه فن التأثير في الآخر، وجذب انتباهه، وإقناعه بالحجة، وهي وسيلة للتعلم، واكتساب المعرفة. والمحادثة لاتكون من طرف واحد، إنما هي علاقة ذات طرفين، وبذلك تحقق البعد الاجتماعي، والتواصل مع الآخر، وتعلم المتحدث أصول الحوار، وشرط المحادثة من غير شك المعرفة والثقافة، والتهذيب والاحترام، وضبط الانفعالات، وتوجيه المشاعر، وهي تكسر مشكلات الخجل والإحراج والخوف، وتنمي شخصية الطالب.

ومن لوازم المحادثة الاستماع، وهو من مناشط اللغة، إذ لايتقن المرء اللغة إلا بحسن الاستماع، ولا يتحقق إلا بالإصغاء إلى المتحدث بالعين والقلب والسمع، من غير مقاطعة حتى يتم حديثه، ويساعد على اكتساب المعرفة، وتنمية المدارك، وتقوية القدرة على الفهم والاستيعاب، والإحاطة بالمادة المسموعة، ونقدها، والحكم عليها، والتدخل بالحديث عند الضرورة، أو وفق الدور، وبالتهذيب وحسن البدء.

ومن أسف أن الطالب الجامعي كاد يعطل مهارة الاستماع إليه، بانهماكه بتدوين مايلقيه المدرس في المحاضرة، وهو يعتمد اعتماداً كلياً على مايدونه، ولا يلقي بالاً إلى مايسمع، ولديه يقين بأنه سيقرأ فيما بعد مادونه في دفتره، ولذلك لايستوعب مايسمع، ولا يحيط به، ولا يسأل مدرسه، ولا يحاوره، لأنه يرجئ الفهم والاستيعاب إلى مهارة أخرى يعوّل عليها هي القراءة للمادة المكتوبة، وبذلك كاد الطالب نفسه يلغي مهارة الاستماع والمحادثة باعتماده على التدوين والقراءة.

ومما لاشك فيه أننا لاندعو إلى إلغاء القراءة، بل نؤكد أهميتها، ولكن ليس على حساب المحادثة والاستماع، ومما لاشك فيه أيضاً أن الاستماع نشاط صعب، إذ يقتضي التوجه إلى المتحدث بكل القوى الفاعلة والمنفعلة، واستيعاب مايقوله، وهي عمليات صعبة، متعبة، سرعان ما يملُّها الطالب ويتعب، ولذلك تأتي المحادثة والحوار مع المدرس، لتنعش الطالب، وتجدّد انتباهه وتحثه على المتابعة، وإدراك مايسمع، وفهمه، والحوار على أساس منه.

ومرة ثانية تظهر مشكلة الأعداد الكبيرة للطلاب، إذ لاتساعد كثرة العدد كلاً من المدرس والطالب على إتقان الاستماع والمحادثة، إذ يضطر المدرس إلى الاستمرار في الإلقاء، ولا يعطي فرصة للسؤال أو الحوار، كي لايحدث الشغب في قاعته، وتعم الفوضى، وبالمقابل، يملّ الطالب من هذا الاسترسال في الإلقاء، ويتعب من طول الإصغاء، فينشغل بالكتابة، أو يتشاغل، ولا يستطيع المتابعة، ولا يحقق حسن الإصغاء.

إن التعليم الصحيح في المراحل كلها لايتحقق إلا بالانطلاق من طبيعة اللغة وهي كونها أصواتاً مسموعة وألفاظاً منطوقة قبل أن تكون حروفاً مكتوبة، وما الحروف المكتوبة إلا رموز لتلك الأصوات، ولا يتحقق التعليم الصحيح إلا بتحقيق جوهر اللغة، وهو الصوت المسموع، واللفظ المنطوق، انطلاقاً من الإشارات المصوغة في حروف وكلمات، ولا بد لذلك من مهارتي المحادثة والاستماع.

وإن المرء ليعجب من إهمال مدرسي العربية أصول النطق الصحيح للحروف والتلفظ الجميل بالكلمات أو إظهار حركات الإعراب على أواخر الكلمات، وسلاسة التعبير في إلقائهم وقراءتهم، ولا يعطون العربية حقها من روعة البيان وسحر الإيقاع، حتى إن بعضهم ليؤكد أن المعوّل عليه هو المعنى والأفكار والحقائق والمعلومات ولا قيمة للغة، ويقول مثل هؤلاء لطلابهم: عبّروا كيفما شئتم، المهم هو الأفكار والمعلومات. ومثل هذا الفصل بين المعلومات والأفكار وإتقان اللغة غير صحيح على الإطلاق، ولا يمكن للمعلومات أن تترسخ وتنضج إلا بالتمكن من اللغة وامتلاكها والوعي بمبادئها وقيمها الفنية والجمالية. وتظل مرحلة التعليم الفرصة الوحيدة أمام الطالب ليتقن لغته ويتعلمها ويحسن أداءها نطقاً ولفظاً، أما المعلومات فيمكنه أن يستكملها فيما بعد من خلال القراءة والمطالعة.

إن المرجوّ هو حرص المدرسين عامة ومدرسي اللغة العربية خاصة على سلامة النطق، وبلاغة التعبير، ليعوّدوا طلابهم على سماع لغتهم العربية، وليس عيباً أن يستعين مدرسو العربية بأجهزة السمع ورصده وتسجيله في تعليم الطالب لغته العربية على نحو ماهو متبع في تعليم اللغات الأجنبية. إن قلة الاعتماد على

المشافهة في التعليم من محادثة واستماع هي أحد أسباب تراجع العربية الفصيحة، وطغيان العامة، حتى كادت الفصيحة تتحول إلى لغة الكتابة والقراءة فحسب.

ومن الممكن أن يذكر المرء في هذا السياق الحاسوب، إذ يمكن من خلاله تقديم برامج تعليمية تتطور في سلاسل ومراحل، تعلّم الطالب اللغة العربية بالصوت والصورة، وبالسماع والنطق، ومما لاشك فيه أن الحاسوب سيتيح فرصة تعليم متقدمة، ولا سيما إذا تمّ إعداد برامج تعليم جيدة علمياً، ومشوقة فنياً، ومتطورة وفق الأعمار ومراحل التعليم. ومن الممكن أن تكون برامج تعليم اللغة العربية بالحاسوب ذات نوعين، نوع يعتمد على التعليم الذاتي، أي باعتماد المتعلم على نفسه، في تعامله مع برنامج التعليم بالحاسوب، ونوع يكون بإشراف مدرس، يساعد المتعلم على التعامل مع برنامج الحاسوب. ولكن لابد من القول إن الحاسوب وحده لايكفي، ولا بدّ من أن يكون مصحوباً بالممارسة الفعلية، أي بالحوار والمحادثة، لا مع الحاسوب وحده، مهما تطورت تقانته وتقدمت، إنما مع الإنسان أيضاً، لأن الإنسان هو الأول، وهو المقصود بعملية التعلم والتعليم.

إن ماتعتز به العربية حقاً هو حفاظها على أصواتها التي لم يطرأ عليها إلا تغير محدود جداً، وهذه سمة من سماتها الخاصة بها، فنحن نتكلم العربية ونلفظها، بأصواتها مثلما كان ينطقها الأجداد قبل نحوٍ من ألفي عام، ولا بد من التأكيد أن الحافظ لهذه السمة المميزة هو القرآن الكريم بفضل تلاوته.

وإذا كان العربي يريد أن يحفظ لغته حقيقة، وإذا كان يرغب في تعلمها والنطق بها وأدائها الأداء الصحيح والجميل، فما عليه إلا أن يعود إلى القرآن الكريم، لا ليقرأ في المصحف بعينيه قراءة صامتة أو يتلوه فحسب، بل ليستمع إلى كبار القراء من خلال أشرطة التسجيل، أو برامج الحاسوب، وليستمع إليهم بقلبه وعقله وسمعه وحواسه كلها، ويتنبّه إلى أدائهم الجملة، ولفظهم الكلمة، ونطقهم الحرف، ولينظر بعيني سمعه وقلبه إلى مواطن الجمال والسحر والبيان في النطق والأداء، وعندئذ يمكنه أن يتلو بعد ذلك القرآن الكريم ويتعلم العربية.

وفي هذا كله ما يؤكد أخيراً أن السماع والمحادثة، أو ما نسميه المشافهة، هو منشط أساسي في العملية التعليمية، ولا سيما تعليم اللغة العربية.

اللغة العربية والمستقبل

تحديات الماضي والحاضر:

يقول أحد الأدباء في وصف حال اللغة العربية:" تدخل متجراً من المتاجر أو مصرفاً من المصارف أو شركة من الشركات فلا تقرأ في الإعلانات والمستندات إلا كتابة أجنبية، ولا تسمع في المحادثات والمفاوضات إلا لغة أجنبية، فإذا حرصت على التفاهم بالعربية لاعتزازك بها أو لجهلك بغيرها تضاءلت في رأي مخاطبك، فينظر إليك بشطر عينه، ويكلمك ببعض شفته، وربما صغرت وصغرت حتى يستسر عليه مرآك فلا يحفلك" (الزيات، ص ٣٣٦-٣٣٧) والأديب هو أحمد حسن الزيات، والحال التي يصفها ترجع إلى عام ١٩٣٦، وحال اللغة العربية اليوم، ونحن في عام ٢٠٠٨، ليست أكثر سوءاً من حال اللغة العربية قبل سبعين عاماً، بل لعل حالها اليوم أفضل مما كانت عليه.

ويقدم كاتب آخر صورة مشابهة، وهو إلياس عبده قدسي(١٨٥٠ - ١٩٢٦)حيث يقول:"والآن يميل أهل هذا العصر إلى كتابة الألفاظ العربية بالحروف إفرنجية، فقلما ترى ورقة من أوراق الزيارة إلا وترى اسم صاحبها مطبوعاً عليها بالحروف العربية والإفرنجية، وكثيرون يمضون أسماءهم بالعربية والإفرنجية معاً" (كامل الخطيب، ص ٩).

إن مثل هذه الظواهر الاجتماعية هي دليل على عادات وتقاليد أكثر مما هي دليل على ضعف العربية، وهي عادات قابلة للتغير والزوال، وإن كانت ما تزال مستمرة إلى اليوم، حيث يراها المرء في الإعلانات وفي أسماء المحلات والبضائع والمنتوجات، يلجأ إليها التجار للكسب، وهي لا تصنع ثقافة، ولا تدل في شيء على ضعف اللغة، فاللغة لا تصنعها مثل هذه الظواهر المتغيرة، إنما يصنعها الشعب الناطق بها، ويصنعها الشعراء والأدباء والمبدعون، وهم الذين يصوغون وجدان الأمة وضميرها. إن مثل هذه الظواهر في الحياة اليومية العادية تقابلها الجامعات والصحف والمجلات والروايات والأشعار وهي كلها بعربية فصيحة، بل تقابلها العربية في مؤسسات المجتمع والدولة وفي السوق والحياة اليومية وهي كلها بالعربية.

وقد عبر عن مثل هذا الرأي في نظرية متكاملة بارون فيلهلم فون هومبلت ((Baron Wilhelm von Humboldt ١٧٦٧ - ١٨٢٥) فهو"يعتبر الواقع الراهن غير ذي قيمة، فكيفما كانت لغة من اللغات في جذورها ستبقى كذلك إلى الأبد على الرغم من التقلبات التاريخية السطحية التي قد تخفي ذلك، فعبقرية اللغة لا تتأثر...ويوجد داخل أي شعب من الشعوب أفراد عددهم محدود ممن نَصفهم

بالعباقرة ...وهم لا يتصرفون فقط وفق طرق محددة يمليها الإرث القومي الثقافي، بل يضيفون إلى هذا الإرث ليدفعوا به إلى الأمام أبعد من ذلك" (جوزيف، ص ٧٣).

ولكن مع ذلك لا يمكن إنكار ما واجهته العربية من أخطار، فقد واجهت في القرن العشرين تحديات كبيرة، واستطاعت الصمود في وجهها وتحديها، ففي عام ١٨٨٠ أصدر ولهلم سبيتا كتابه:"قواعد العربية العامية في مصر" اتهم فيه العربية بالصعوبة، ودعا إلى اعتماد العامية، ووضع قواعد لها، وكتابتها بحروف لاتينية للتيسير على العامة، ولتقريب العلوم، وفي أواخر عام ١٨٨١ طرحت مجلة "المقتطف" فكرة للنقاش تتلخص في كتابة العلوم بالعامية المصرية، وفي عام ١٨٩٠ أصدر كارل فولرس كتابه:" اللهجة العربية الحديثة في مصر"، وفي سنة ١٩٠١ ألف "ولمور" القاضي الإنكليزي في محكمة الاستئناف كتاباً عن عامية القاهرة، وضع فيه قواعد لها، واقترح كتابتها بحروف لاتينية، وروجت للكتاب مجلة المقتطف، فأثارت ضجة في الأوساط الثقافية، وكتب حافظ إبراهيم قصيدته الشهيرة "العربية تنعى وطنها بين أهلها" (١٩٠٣) ومطلعها:

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَاتَّهَمْتُ حَصَاتِي وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي

وفي سنة ١٩٢٦ دعا وليم ولكوكس إلى الأخذ بالعامية المصرية، وهجر العربية الفصيحة، وترجم أجزاء من الإنجيل إلى العامية المصرية.

والأمر لم يقف عند الأجانب، بل امتد إلى العرب أنفسهم، ففي عام ١٩٠٢ نشر عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة عيسى إسكندر المعلوف عدة مقالات في مجلة المجمع عن اللهجة العربية العامية، دافع فيها عن اللهجات العامية، ورأى أن من أسباب التخلف هو الفرق بين لغة الحديث ولغة الكتابة، ودعا إلى كتابة العلوم بالعامية ليفهمها الناس، وفي سنة ١٩٤٣ دعا عضو مجمع اللغة العربية عبد العزيز فهمي في اجتماعات مجمع اللغة العربية إلى كتابة العربية بحروف لاتينية، وناقش المجمع هذا الاقتراح على مدى ثلاث سنوات(ينظر:الفيصل، ص ٣٧ وما بعدها، وينظر: الفرج، ص ٨٥ وما بعدها).

وفي عام ١٩٤٥ دعا سلامة موسى في كتابه:" البلاغة العصرية واللغة العربية" إلى كتابة العربية بحروف لاتينية، واحتج لذلك بحجج كثيرة، أهمها حاجة العرب للنهوض، ولا سيما النهوض الصناعي، وتعلم العلوم الغربية، كالطب والهندسة، ولا يمكن أن يكون إلا باللغة الأجنبية (ينظر:كامل الخطيب، ص٧٠- ٧٤)

وقد جوبهت تلك الدعوات وغيرها كثير بالرد والتصدي والتفنيد، كما استمرت العربية في الصحافة وفي مؤسسات الدولة، بل إن تلك الدعوات كانت

عوامل حافزة تدفع إلى الحفاظ على العربية والتمسك بها. والعالم باللغة ينكر مثل هذه الدعوات وإن لم تكن العربية لغته الأم، يقول بلاشير:"وقد تجاوز بعض الناس الحق إلى الباطل فاقترحوا استبدال الحروف اللاتينية بالأبجدية العربية، ولكني أعتقد أن مثل هذا المشروع مكتوب عليه الفشل لأن العربية غير التركية، وأيقنت أن الخط العربي سيدوم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها" (الصالح، ص ٣٥٥).

إن اللغة ليست ملك فرد يدعو إلى تغيير حروفها، وليست نتاج يوم أو ليلة، وقد أخذت اللغة أبعادها التاريخية والحضارية من خلال الشكل الذي كتبت به، فأصبحت الحروف جزءاً منها، ومن تاريخها وتراثها، وكتابة اللغة بغير حروفها هو قطع الصلة بين شعبها وتاريخه وشخصيته، لأن اللغة حاملة المشاعر والعواطف والأهواء، والمعبرة عن نمط التفكير.

ومثل تلك الدعوات اللغوية في الظاهر تحمل في طياتها دوافع وغايات تتلخص في إضعاف العرب وتمزيقهم وفصلهم عن تاريخهم وتراثهم ودينهم، بدعوى الحرص على النهوض بهم وتطويرهم، كما تقف وراءها دعوات إقليمية انعزالية في لبنان ومصر والعراق(ينظر: الدقاق، ص ١٠٥-١٥٢).

ومن الغريب في مثل تلك الدعوات أن تقطع صلتها في لبنان بالعرب، وترى فيهم دخلاء، على نحو ما يرى الأب بطرس ضو في كتابه:" تاريخ المارونيين" (١٩٨٤) وفيه يقرر أن المارونيين شعب عمره ثلاثة ملايين سنة، وهم ينتمون إلى الفينيقيين، ويعلق جون جوزيف على هذا الرأي بقوله: " أي أن عمره أقدم بعشر مرات أو عشرين مرة من عمر النوع البشري الحديث العاقل... وبالنسبة إلى الفينيقيين فكل الدلائل الأركيولوجية تفيد بأنهم كانوا قوماً ساميين، وبعبارة أخرى ينتمون بالضبط إلى الأصول الإثنية والثقافية ذاتها التي كان ينتمي إليها العرب"(جوزيف، ص٢٦٦-٢٦٧).

وواضح ما في تلك الآراء من بعد عن الموضوعية والعلمية وعن المعرفة العلمية الصحيحة، ولكن كان لها تأثيرها في الواقع، وشغلت العرب ردحاً من الزمن، وساقتهم إلى مسارات من التفكير كانوا في غنى عنها.

ولم يكن الدعاة إلى العامية وكتابة العربية بالحروف اللاتينية من المسيحيين والمارونيين والأقباط فحسب، بل كان من المسلمين من دعوا إلى مثل ذلك، ومنهم أحمد لطفي السيد وعبد العزيز فهمي، بل إن من المسيحيين والمارونيين والأقباط من كانوا شديدي الغيرة على العربية، وقد خدموها فأحسنوا خدمتها، ورفضوا مثل تلك الدعوات، ومنهم أنستاس الكرملي، وجبر ضومط، وأحمد فارس الشدياق، ومارون عبود، وحنا الفاخوري، وآل اليازجي، وشحادة الخوري، ولا ينسى المرء شعراء أغنَوا العربية أمثال بشارة الخوري أو الأخطل

الصغير وإلياس أبي شبكة وعبد الله يوركي حلاق وجاك صبري شماس، وأمثال شعراء المهجر، ومنهم إيليا أبو ماضي وزكي قنصل والشاعر القروي، وغيرهم كثير في الوطن وفي المهجر.

ويحفل ديوان القروي بقصائد يتغنى فيها بالعروبة والإسلام وبنبيّ العرب محمد عليه الصلاة والسلام، ومنه قوله يعتز بالعربية والعروبة في قصيدة ألقاها سنة ١٩٣٥ في الذكرى الألفية لوفاة أبي الطيب المتنبي: (القروي ج٢ ص٥٩)

لتسجدْ ملوكُ الشعرِ من كل أمة إذا رفعتْ بندَ الفصاحة عدنانُ

وليست المشكلة في المعتقد الديني، وإنما هي في الانتماء الفكري والسياسي، ولعل من التناقض أن يلاحظ أن الدعاة إلى العامية كانوا يكتبون بعربية فصيحة راقية، و كتب الشعراء منهم معظم شعرهم بالعربية الفصيحة، وإليه ترجع شهرتهم، وهو أجمل من شعرهم بالعامية، ولعل في مقدمتهم سعيد عقل.

إن الأخطار التي واجهاتها العربية في القرن العشرين كبيرة، ولكن التطور الذي حققته في القرن العشرين أكبر من تلك الأخطار، وهو تطور يتجاوز كل ما حققته من تطور في القرون السابقة، مما يؤكد أن العربية تملك مقومات الحياة والتطور والبقاء.

استطاعت العربية في القرن العشرين أن تستوعب فنون القول الجديدة من رواية وقصة قصيرة ومسرح وشعر جديد، وأثبتت قدرتها على استيعاب فلسفات وعلوم متطورة كالماركسية والوجودية والبنيوية وعلم النفس والتحليل النفسي وعلوم الذرة والكيمياء والفضاء، وعبرت عن معطيات حضارية جديدة، فكل المصطلحات المستعملة في الميادين الجديدة مصطلحات عربية، كالمصطلحات في مجال النقل البري والبحري والجوي ووسائل الاتصال من بريد وبرق وهاتف ومن اتصالات معاصرة كالحاسوب والهاتف الثابت والهاتف الجوال والشابكة، كما تعاملت مع الصحافة والإذاعة المرئية والمسموعة والفضائيات والبرمجيات بلغة عربية فصيحة، بالإضافة إلى ميادين ومؤسسات اجتماعية قد لا يتنبه المرء إلى أن التعامل فيها يقوم باللغة العربية الفصيحة من مثل الجيش والفنادق والمعامل ومؤسسات الحكومة والجامعات والمدارس وميادين أخرى كثيرة كالزراعة والصناعة والسياحة، كل أشكال التعامل فيها تجري بالعربية الفصيحة، بالإضافة إلى التعليم الجامعي، وهو في معظم الأقطار العربية بالعربية الفصيحة.

ولكن مع ذلك لا يمكن الاطمئنان، ولا بد من الوعي والتنبه والعمل، ولا بد من إدراك المخاطر والمؤامرات، ومعرفة جوانب الضعف الظاهرة والباطنة،

ولكن لا بد أيضاً من معرفة مقومات العربية، والوعي بها، والحفاظ عليها وتطويرها.

إن اللغة العربية شأنها في ذلك شأن معظم اللغات الحية العريقة، ليست نتاج قرن أو قرنين من الزمان، وليست نتاج جيل أوجيلين، وهي ليست ملك فرد ولا أفراد، فهي ليست من وضع سيبويه ولا ابن فارس ولا ابن جني، وهي ليست ملك وليم كوكس ولا سبيتا ولا ولمور، هي نتاج حقب، وملك أجيال، وهي ليست مجرد لغة تفاهم أو تواصل، بل هي بالإضافة إلى ذلك لغة علم وأدب وتجارة وحياة وحضارة.

ولقد لخص ذلك كله سوسير فقال عن اللغة: "هي الجانب الاجتماعي من الكلام الخارج عن نطاق الفرد، لأن الفرد الواحد غير قادر على أن يخلقها أو على أن يحورها، وهي لا توجد إلا بمقتضى نوع من التعاقد يتم بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة، ومن جهة أخرى فإن الفرد بحاجة إلى دربة حتى يعرف قواعد عملها" (سوسير، ص ٣٥).

ويقول عباس محمود العقاد:"بدأت اللغة العربية تاريخها المعروف بخصائصها المميزة لها اليوم في عصر سابق للدعوة الإسلامية، يرده علماء المقارنة بين اللغات إلى القرن الرابع قبل الهجرة، ويرجع فيما نعتقد إلى عصر قبل ذلك، لأن المقابلة بينها وبين أخواتها السامية يدل على تطور لا يتم في بضعة أجيال، ولا بد له من أصل قديم يضارع أصول التطور في أقدم اللغات، ومنها السنسكريتية، وغيرها من اللغات الهندية الجرمانية، فلابد من أجيال طويلة قبل أن ينتهي تطور اللغة" (العقاد، ص ٣). ولذلك لا بد من درس مشكلات العربية التي أثارها المغرضون، ولا بد من فهمها من خلال الدرس اللغوي المعاصر، ولعل أهم تلك المشكلات مشكلة العامية والفصيحة.

مشكلة العامية:

إن المشكلة الأولى التي يثيرها علماء اللغة حول العربية سواء في ذلك المنصفون وغير المنصفين، هي مشكلة العامية، وهي المدخل الذي يحاول من خلاله أن ينفذ معظم المعادين للعربية، مع العلم بأن العامية ظاهرة لغوية تتوافر في لغات العالم كافة، وهي قانون من قوانين تطور اللغة، ولا بد من وجودها في العربية وفي غير العربية، وقد درس العاميات علماء اللغة في معظم لغات العالم، واهتموا بها، ووضعوا خرائط جغرافية تحدد مناطق اللهجات التي تنطق بها كل منطقة.

"يوجد مثل هذا التنوع في اللهجات واللكنات الإنجليزية إذ يظهر الأطلس اللغوي لإنجلترا The Linguistic Atlas of England وأطلس الأصوات الإنجليزية Atlas of English Soundsالمبنيان على أساس مسح اللهجات

الإنجليزية توزُّع عدد من البدائل الجغرافية المألوفة في اللهجات الإنجليزية" (دورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ص ٩٢٧).

"وضمن فرنسا نفسها فإن الفرنسية القياسية هي اللغة الوحيدة التي منحت اعترافاً رسمياً كاملاً، غير أنها ليست اللغة الأولى أو الوحيدة بالنسبة لمجموعة كبيرة من السكان، إذ نجد أشكالاً من اللغة الهولندية في الفالندرز الفرنسية وأشكالاً من الألمانية في الألزاس وشمال اللورين، وينطق بالبريتانية في غرب بريتاني (شمال غرب فرنسا)، وتستعمل لغة الباسك في غرب باريرينز(جنوب غرب فرنسا)، وتستعمل الكاتلان في روزيلون(جنوب فرنسا)، وفي قسم كبير من جنوب فرنسا يشار إلى اللهجات الأصلية عادة على أنها بروفنسالية" (دورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ص٩٢٢).

وعلى الرغم من إقرار علماء اللغة أن في فرنسة لهجات أصلية لم تذب في اللغة الفرنسية فإنهم لا يحرضون أبناء تلك اللغة أوالمنطقة على الاستقلال أو الانفصال عن فرنسة، ولا يشجعونهم على تطوير لغتهم واستقلالها، في حين يفعلون ذلك بكل ما أوتوا من وسائل في تحريض البربر في الجزائر على التمسك بلغتهم الأمازيغية، ويدعونهم إلى الاستقلال بلغتهم وهويتهم عن الوسط العربي الذي يعيشون فيه وينتمون إليه، مع العلم بأن دراسات كثيرة تؤكد أن اللغة الأمازيغية هي لغة عربية.

لقد انتهى البحث بالدكتور علي فهمي خشيم إلى أن اللغة الأمازيغية "ليست إلا واحدة من اللغات أو اللهجات التي نسميها اللغات العروبية التي تشمل لغات الوطن العربي القديمة في الرافدين والشام ووادي النيل والشمال الإفريقي" (خشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص هـ) كما انتهى به البحث إلى وضع معجم عربي بربري مقارن "الهدف منه تأثيل المفردات الأمازيغية البربرية وتأصيلها وإعادتها إلى أرومتها العربية الأولى" (خشيم، لسان العرب الأمازيغ، ص.أ).

إن في هذا ما يؤكد حجم المؤامرة التي ما تزال تحيط باللغة العربية والشعب العربي، وعلماء اللغة يقرون أن درس اللغة لا يمكن أن يكون منفصلاً عن مجتمعاتها، أو تاريخها، ولكنهم يناقضون مقولاتهم العلمية أو يوظفونها لخدمة أغراض غير علمية. إن "أي دراسة لغوية تحتاج إلى أخذ الهوية بعين الاعتبار إذا أرادت أن تكون دراسة تامة وغنية وذات مدلول لأن الهوية ذاتها لا يكتمل مدلولها إلا في جوهر اللغة، وفي كيفية الوظيفة التي تؤديها هذه اللغة وفي الطرق والأسباب التي عملت على ظهورها إلى الوجود وتطورها وفي كيفية تعلمها واستخدامها كل يوم من قبل كل مستخدم لغة في كل وقت وحين" (جوزيف، ص٢٩٧). ويقول جون جوزيف: "إن التحديد التاريخي للغة ما مثل الصينية أو الإنكليزية أو الكويتشوة كان دائماً يرتبط ارتباطاً وثيقة بالتأسيس

لهوية دينية أوإثنية أو قومية، وقد بسط أندرسون (١٩٩١) فكرة أن اللغة هي الأساس الذي يقوم عليه تخيل الأمة، وبينما يمتدح عمله على تنبيهه المفرط على صلة اللغة ـ الأمة تقترح دراسة تاريخ اللغات ذاتها ألا أحد يشكل أساساً لمبنى الآخر، بل إنهما بدلاً من ذلك يشبهان مبنيين توأمين، بنيا بطريقة يتحمل فيهما كل مبنى وزن الآخر". (جوزيف، ص ٣٩٨). إن درس اللغة العربية بمعزل عن هويتها وعن الناطقين بها وتاريخهم ودينهم هو منهج غير علمي.

وما العامية في الواقع إلا اللغة الفصيحة في تحققها الواقعي، أو هي اللهجة في المصطلح العربي القديم، أو هي الكلام كما يرى سوسير، ومن الممكن أن نوحد بين مصطلحي: اللهجة والعامية، فالعامية مصطلح معاصر، ويقصد بها طريقة استعمال العربية الفصيحة في مثل لبنان أو مصر أو تونس وفق التقسيمات السياسية العاصرة لأقطار الوطن العربي، واللهجة مصطلح قديم تطلق على طريقة استعمال العربية في قبيلة من القبائل العربية، وكما تعددت اللهجات بتعدد القبائل العربية في القديم، كذلك تعددت العاميات في الأقطار العربية في العصر الحديث.

"واللهجة مأخوذة من لهج الفصيل يلهج إذا تناول ضرع أمه، ولهج الفصيل بأمه إذا اعتاد رضاعها، فهو فصيل لاهج، واللغة يتلقاها الإنسان عن ذويه ومخالطيه، واللهجة هي لغة الإنسان التي جبل عليها واعتادها ونشأ عليها، وهي طريقة معينة في الاستعمال اللغوي توجد في بيئة خاصة من بيئات اللغة الواحدة، أو هي العادات الكلامية لمجموعة قليلة من مجموعة أكبر من الناس تتكلم لغة واحدة" (هلال، ص ٢٦ ـ ٢٧).

واللهجة في تعريف آخر هي "مجموعة من الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة، وتشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكن الظواهر اللغوية الفاصلة بينها لا تكون بحد يمنع اتصال الأفراد بعضهم ببعض، وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي: اللغة" (الفرج، ص ٧٧)

ولا بد من وجود العاميات في كل لغة من لغات العالم لأن العامية هي صورة متحققة في الواقع عن اللغة الفصيحة، ولا بد من الاختلاف بين ما هو متحقق وما هو مثالي، والعامية تنشأ بأسباب كثيرة منها ما هو زماني ومنها ما هو مكاني، إذ لا يمكن أن يتكلم باللغة الجيل الحاضر كما كان يتكلمها الجيل السابق، ولا يمكن أن يتكلمها الابن كما كان يتكلمها الأب، لا بد من الاختلاف والتطور، كما لا يمكن أن يتكلمها تجمع بشري يبعد عن تجمع بشري آخر آلاف الأميال، كما لا يمكن أن يتكلمها تجمع بشري في مرحلة حضارية كما كان يتكلمها تجمع بشري في مرحلة حضارية أخرى مختلفة، وأكثر ما يظهر هذا

التغير في معاني المفردات، ثم يظهر بصورة أقل في بناء الجملة وتركيبها، ويكون ظهور التغير الأقل في أصوات اللغة، ولاسيما في اللغة العربية، بالإضافة إلى ما يكون من اختلاف شخصي خاص في نبرة الصوت، وطريقة النطق، وأسلوب الأداء.

وهذا التنوع اللهجي موجود في لغات العالم، و"يمكننا أن نعطي شاهداً على مثل هذا التنوع من الاختلافات في اللغة الإنجليزية في ترتيب وصيغ المفعول به المباشر وغير المباشر، حيث توجد الاختلافات بين : Give it to me Give it me Give me it في مناطق من إنجلترا منفصلة نسبياً، وبالمقارنة فإن الاختلافات المعجمية أو المفرداتية موثقة بشكل جيد، وبالنسبة لمعظم المجتمعات اللغوية الأساسية فلقد تم تجميع مسردات بالفئات المعجمية المحلية في عدد من الدول منذ عهد بعيد نسبياً، فنلاحظ المعلومات عن إنجلترا في ما كتبه وكلن (١٩٧٧) وفي عدة منشورات حديثة يأخذ شكل قوائم بالكلمات المحلية وعلى مستوى أكثر تنظيماً، فهناك عدد من القواميس الكبيرة بلهجات المناطق الأوسع" (ديورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ج ٣ ص٩٣٥).

"ولعل المستوى المفرداتي هو أكثر مستويات اللغة عرضة للتنوع المحلي الذي يحصل على نطاق ضيق، ذلك أنه خلافاً لعلم وظائف الأصوات الفونولوجيا، ليس نظاماً مغلقاً وأن الكلمات يمكن تبنيها، أونقلها أو تبديلها، بكلمات أخرى، دون تبعات أساسية تلحق بالتركيب اللغوي أو عوائق في التخاطب، ولذلك يمكن أن تظهر اللهجة التقليدية قدراً كبيراً من التنوع في منطقة جغرافية محدودة، خاصة في مجال الكلمات المحلية أو الزراعية التي تستخدم أساساً في ضمن مجتمع صغير نسبياً، يظهر المثل النموذجي على هذا الوضع في الثماني والثمانين مرادفاً لكلمة أعسر" (ديورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ج ٣ ص ٩٣٦).

ولكن من خصائص العربية حفظها على الأصوات، وبناء الجملة، في المقام الأول، أما تطور دلالة المفردات فينطبق عليها كل ما ينطبق على اللغات من قوانين التطور، حيث تتطور دلالات المفردات بالانتقال من الخاص إلى العام، ومن العام إلى الخاص، ومن الحسي إلى المجرد، ومن المجرد إلى الحسي.

"إن ازدواجية اللغة، أي ثنائية الفصيح والعامي ظاهرة متجذرة في التكوين اللغوي والتواصلي للشعوب، وخصوصاً الشعوب ذات الثقافة، بحيث ترتكز عملية التواصل اليومي على التفرع اللهجي، وترتكز عملية التواصل الثقافي والأدبي على اللغة الراقية الفصيحة، وليس بمقدور أحد أن يمحو هذه الثنائية، إلا إذا كان بمقدوره أن يمحو كل السياق الحضاري المكتوب بالفصحى، الذي شكل التراكم المعرفي والذهني لدى الأفراد" (الفرج، ص ٨٧) .

إن مشكلة الواقع والمثال أو العامية والفصيحة مشكلة أزلية، وسوف تستمر ما استمرت الحياة، وهي مشكلة إنسانية عامة، لا تتعلق باللغة وحدها، بل تتعلق بجوانب الحياة كافة، فلكل إنسان طموحه الذي يرتجي تحقيقه، والواقع الذي يستطيع تحقيقه، ولكل مجتمع طموحه والواقع الذي يستطيع تحقيقه، ولا يمكن الوصول إلى التحقيق الكلي للطموح، ويظل المثال أكبر من المتحقق، بل يظل بعيداً عن التحقق، ولا بد من وجوده، ليقاس عليه الواقع.

ولقد فرق سوسير بين اللغة والكلام، وأصبح هذا التفريق ركيزة أساسية لكل الدراسات اللغوية المعاصرة، وهو يؤكد الفرق بين اللغة في صورتها المثالية وواقعها التطبيقي، يقول سوسير: "إن اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد، فإنما هي منه بمثابة قسم معين، وإن كان أساسياً، والحق يقال، فهي في الآن نفسه إنتاج اجتماعي لملكة الكلام، ومجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة، وإذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعاً في الوقت نفسه، بين ميادين متعددة، بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي، منتمياً في الآن نفسه إلى ما هو فردي وإلى ما هو اجتماعي، ولا يتسنى لنا ترتيبه ضمن أي قسم من أقسام الظواهر البشرية لأننا لا نستطيع أن نستخرج وحدته. أما اللغة فهي على العكس من ذلك، كل بذاته ومبدأ من مبادئ التبويب وما إن تجعلها في المقام الأول بين ظواهر الكلام حتى ندخل نظاماً طبيعياً في مجموعة من الظواهر لا تخضع لأي نوع آخر من التبويب" (سوسير، ص ٢٩). ولذلك يرى سوسير نفسه أن الحل في الاعتماد على اللغة حيث يقول: " وليس يوجد في رأينا إلا حل واحد لكل هذه المشاكل: يجب أن نحصر اهتمامنا في ميدان اللغة فقط، وأن نتخذها قاعدة للحكم على جميع مظاهر الكلام" (سوسير، ص ٢٩).

إن للغة خصائص تميزها عن العامية وهي كما حددها سوسير نفسه، حيث يقول: "اللغة شيء معين مضبوط الحدود ضمن مجموع ظواهر الكلام المتنافرة، وإن اللغة بتميزها عن اللفظ شيء يمكن أن يدرس على حدة، فنحن لم نعد نتكلم اللغات المنقرضة ولكننا قادرون على تمثل بنيتها اللغوية تمام القدرة، وليس يمكن لعلم اللغة أن يستغني عن عناصر الكلام الأخرى فقط، بل هو لا يكون ممكناً إلا متى لم يشمل مثل تلك العناصر" (سوسير، ص ٣٥ ـ ٣٦) .

ولا بد من الإشارة إلى رأي لا يقول بنشوء العامية من الفصيحة، بل يقول بنشوء الفصيحة من العاميات، وهذا ما يوضحه سوسير، حيث يقول: "إن الوحدة اللغوية قد تتفرّع عندما يتعرض لسان طبيعي لتأثير لغة أدبية، ويحدث هذا الأمر حتماً كلما بلغ شعب من الشعوب درجة معينة من الحضارة، ونعني بـ لغة أدبية لا لغة الأدب فقط، وإنما في معنى أعم أي نوع مهذب من أنواع اللغة تستعمله

مجموعة بشرية بأكملها، سواء أكانت رسمية أم لا، فإن اللغة إن تركت وشأنها لا تكون إلا في صورة لهجات لا تنتهك إحداها حدود الأخرى، وهكذا يكون محكوماً عليها بأن تتجزأ تجزؤاً غير محدود، ولكن لما كانت الحضارة في تطورها تكثر من أسباب التواصل فإن الناس يختارون بناء على نوع من المواضعة الضمنية إحدى اللهجات الموجودة ليجعلوا منها أداة حاملة لكل مآرب الأمة بأجمعها، ودوافع هذا الاختيار متنوعة، فتارة تراهم يفضلون لهجة الجهة التي تقدمت فيها الحضارة أكثر من غيرها من الجهات، وطوراً تراهم يفضلون لهجة المنطقة التي لها الهيمنة السياسية والتي فيها مقر السلطة المركزية، وتارة أخرى نرى بلاطاً من البلاطات يفرض لهجته على الأمة بأجمعها، وعندما ترتقي اللهجة التي نالت الحظوة إلى مرتبة لغة رسمية مشتركة فإنها نادراً ما تبقى على صورتها السابقة، وذلك لأنها تمتزج بها عناصر لهجية تابعة لجهات أخرى، وشيئاً فشيئاً تصبح مركبة من عناصر متباينة بيد أنها لا تفقد تماماً طابعها الأصلي" (سوسير، ص٢٩١ ـ ٢٩٢).

ويبدو هذا الكلام التنظيري تعبيراً عن واقع اللغة العربية في العصر الجاهلي قبيل ظهور الإسلام، وهي المرحلة التي سادت فيها لهجة قريش، كما هو شائع لدى معظم الباحثين، لأنها كانت لهجة التجارة والدين والشعر، وبها نزل فيما بعد القرآن الكريم، وقد عرض الدكتور شوقي ضيف آراء المستشرقين وآراء اللغويين العرب القدامى وكلها تجمع على سيادة لهجة واحدة على سائر اللهجات، وإن كان بعضهم قد قال بلهجة أخرى غير لهجة قريش هي لهجة كندة على نحو ما رأى نالينو، في حين رأى جويدي أنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها، إنما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم، وفي ختام هذا العرض يؤكد شوقي ضيف سيادة لهجة قريش، فيقول:"إن لهجة قريش لم يبدأ ذيوعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طريق القرآن الكريم، كما ظن ذلك بعض الباحثين، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي، فأقدم نصوصه كأحدثها نظم بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم، والتي سميت بعد بالفصحى، فقد كانوا يشعرون بروعتها فاندفعوا يحاكونها وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية، ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام" (ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٣٧).

وفي الواقع تبدو اللهجة السائدة هي جماع لهجات تم اصطفاء أجمل ما فيها وأكثره مناسبة ليكون اللغة الفصيحة، ويؤكد ذلك وجود بقايا من لهجات عدة في الشعر الجاهلي، وظهور أساليب مختلفة في القرآن الكريم وفي حديث رسول الله لا ترجع إلى لهجة قريش. ويؤكد ذلك الدكتور تمام حسان فيقول: "وأغلب الظن أن اللغة العربية الفصحى التي أصبحت لغة مشتركة للعرب من جميع القبائل

كانت لغة الحج والأسواق والمجامع الأخرى، وأن اتصالها بالحج وبمكة هو الذي دعا بعض اللغويين إلى أن يسميها لهجة قريش، والملاحظ أن هذه اللهجة الفصحى تقرب إلى كل لهجة عربية، فتكون أدنى إليها من غيرها من اللهجات، وإنما كانت قريبة منها لأن بعض عناصر تركيبها ملاحظ فيها"(حسان، ص ٦٣-٦٤).

"ومهما يكن من أمر فإن اللغة الأدبية لا تفرض نفسها بين عشية وضحاها إذ نرى قسماً كبيراً من السكان يستخدمون لغتين، لغة الجميع، ولهجتهم المحلية، وهذا ما نشاهده في عديد من جهات فرنسا مثل السافوا... وهذه الظاهرة ظاهرة عامة في ألمانيا وإيطالية حيث بقيت اللهجات المستعملة في كل مكان إلى جانب اللغة الرسمية" (سوسير، ص ٢٩٢).

إن ما قاله سوسير وهو يتحدث عن اللغة بصورة عامة حديثاً مجرداً ينطبق تمام الانطباق على واقع اللغة العربية، وعلى ما قاله علماء اللغة عن العربية قبل سوسير، وفي هذا ما يدل على حتمية تشكل اللهجات، لا بسبب ضعف اللغة، إنما بسبب رقيها إلى المستوى الأدبي والثقافي والحضاري، وهذا هو قانون عام. وفي هذا رد على الدعاة إلى العامية، أو الدعاة إلى كتابة العربية بحروف لاتينية، أو الدعاة إلى التعليم بلغة أجنبية.

والدعوة إلى التعليم بالعامية بحجة صعوبة الفصيحة حجة غير علمية، لأن العامية ليست أقدر من الفصيحة على استيعاب العلوم، ولأن العلوم تقوم على لغة علمية ومصطلحات ولا تقوم على العامية، والذي يأخذ بالعلوم هو المتعلم، لا الأمي، ولن تنفع المتعلم هنا العامية، كما أن الأمي الذي يتكلم العامية لن تصبح العلوم سهلة عليه لمجرد كونها بالعامية. هي في الحقيقة مجرد دعوات لإحداث البلبلة والفتنة، ولصرف الناس عن العلم والتعلم، ولصرفهم عن لغتهم ودينهم وشعورهم الوطني والقومي.

إن الدعوة إلى نهوض الأمة لا يمكن أن يكون بالعامية ولا بحروف لا تينية، وإنما يكون بالاهتمام بالتعليم والنهوض باللغة الأم، ويؤكد ذلك أنه "عندما أطلقت روسيا القمر الصناعي عام ١٩٧٥ اهتزت الأوساط التربوية في أمريكا، وتساءلوا عن السبب الذي جعل الروس يتفوقون عليهم في هذا المجال، وجاءت الدراسات تشير إلى أن السبب في ذلك يرجع إلى إخفاق المدرسة الأمريكية في تعليم الناشئة القراءة الجيدة، ورفع أحد المسؤولين التربويين شعاراً هو: حق كل طفل في أن يكون قارئاً جيداً في السبعينات" (السيد، ص ٣٢٨) وواضح أن الولايات المتحدة لم تحمل اللغة الإنكليزية المسؤولية، ولم تتخل عنها، ولم تدع إلى الأخذ باللغة الروسية، وإنما دعت إلى المطالعة والثقافة وتمكين الطلاب في

المدارس من لغتهم، إن نهوض اللغة أو ضعفها لا يرجع إلى خصائص فيها، إنما يرجع إلى واقع الناطقين بها، فاللغة تقوى بقوة أهلها، وتضعف بضعفهم.

وبالإضافة إلى القانون العام الذي يقضي بوجود فرق بين اللغة والكلام، أو بين الفصيحة والعامية، في لغات العالم كافة، فإن في العربية خصيصة تميزها، وتستدعي وجود العامية، وهذه الخصيصة هي المعيارية.

المعيارية:

تستند اللغة العربية إلى معيار ثابت، وهي تسعى إلى تحقيق أفضل مستوى لها على مر العصور وفق ذلك المعيار، وهو العربية الفصحى، وتتمثل في القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والشعر العربي القديم وكلام العرب، والمرجع الأول للعربية الفصحى هو القرآن الكريم، وهو مصدر الدين الإسلامي، وهذا الدين ليس دين عبادة وصلاة في المسجد فحسب، بل هو دين حياة وتشريع وعمل ومعاملة، ومن هنا كانت اللغة العربية مرتبطة بهذا الدين، وكان هذا الدين مرتبطاً بها، فهما معاً حامل ومحمول، ولا يمكن الفصل بينهما، ولذلك يريد أهل العربية والمتكلمون بها والدارسون لها والمختصون بها أن تبقى محافظة على صورة لها راقية، لتظل مناسبة للقرآن الكريم الذي نزل بها، لأن أي ضعف في تعامل أهلها بها يعني ضعفهم في تلقي القرآن الكريم وفهمه والعمل به، ومن هنا كان الحرص دائماً على تطوير اللغة العربية.

وقد تجلى هذا الحرص منذ العهود الأولى، فقد وضعت علوم كثيرة حول العربية، من أجل القرآن الكريم، لضمان صحة تلاوته، وسلامة فهمه، فبه تقام الصلاة لله، وبه تحقق الأحكام، وبه تكون الشرائع، ولا بد لتحقيق ذلك كله من حفظه وفهمه، ولا بد إذن من إتقان اللغة العربية، فهي لغة التواصل مع الناس، وهي لغة التواصل مع الله، لأن القرآن الكريم هو كلام الله بلفظه ومعناه، أو هو وحي من الله أنزله على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بوساطة جبريل الأمين فتلقاه عنه بلفظه ومعناه، وقد علمه تلاوته، ورتب له آياته وسوره وسماها، ولذلك لقي القرآن الكريم ما لقي من عناية، ونشأ حوله ما نشأ من علوم، لخدمته، وبخدمته خدمت اللغة العربية، فوضعت للقرآن الكريم النقاط، ووضعت علامات ترقيم خاصة، ووضع علم النحو: صرفاً وإعراباً، ووضع علم التجويد، ودرست مخارج الحروف، ودرست أنواع الأصوات، ووضع علم البلاغة، بل لذلك دُوِّنَ الشعر، وحفظت اللغة، من أجل فهم القرآن الكريم وتفسيره، ومن أجل تأكيد القاعدة النحوية، ومن أجل التحقق من اللغة، ووضعت المعاجم أول ما وضعت في غريب ألفاظ القرآن، ثم وضعت معاجم اللغة، وكان اللغويون يلحظون ما ينال العربية من وهن على لسان العامة وفي الحياة اليومية، وهم يريدون لها أن تظل

راقية، قريبة من الفصاحة والسلامة، بل قريبة من البلاغة، لتكون قريبة من لغة القرآن الكريم.

ويؤكد ذلك الشعوب التي دخلت في الإسلام من غير العرب، فقد تعلمت العربية من أجل القرآن الكريم، وكتبت لغتها بالحروف العربية، وأتقنت العربية وأجادتها، وأبدعت فيها علماً وأدباً، فكان من تلك الشعوب علماء ونوابغ وفقهاء ولغويون وشعراء، أسهموا في صنع الحضارة الإسلامية، كالفارابي وابن سينا والبيروني ومحمد إقبال، وابن المقفع والبخاري وسيبويه وابن خالويه والزمخشري والطبري، حتى إن البيروني قال: "أحب إلي أن أهجى بالعربية من أن أمدح بالفارسية"، وكان كبار علماء العربية وكبار شعرائها من أصول غير عربية، ولكنهم ولدوا في مجتمع مسلم يتقن العربية، فتعلموها منذ الصغر وأتقنوها ودرسوها وأبدعوا فيها.

وفي كل مرحلة كان العلماء يراجعون اللغة، ويضعون لها المعجمات، ويجمعون الدواوين، ويشرحونها، حفاظاً منهم على هذه اللغة، وكانوا دائماً يلحظون ما يقع فيه الناس من لحن، أي كانوا يتنبهون إلى الفرق بين المستوى الراقي للعربية الفصحى، والمستوى العادي في الاستعمال اليومي، فكانوا يحرصون على تقريب المسافة بين المستويين، ولذلك وضعت كتب اللحن، لترصد ما تقع فيه العامة من أخطاء، وفي كثير من الأحيان لا يعنون بالعامة الناس العاديين في السوق، بل يعنون بهم أوساط المثقفين، وما تزال مثل هذه المؤلفات توضع إلى اليوم.

ومنها:"معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة" (١٩٨٤) لمؤلفه محمد العدناني، وقد ذكر في مقدمته:"ورد في كتاب في إحدى مكتبات مدينة وليسمبورغ الأميركية أن أحد أعضاء مجلس النواب الأمريكي قال:" إننا نصنع القوانين لمعاقبة المجرمين، الذين يسرقون ويقتلون، فلماذا لا نضع القوانين الذين يفسدون اللغة؟" (العدناني، ص أ) وإذا دل هذا الكلام على شيء فهو يدل على أن الغلط لا بد حاصل في أي لغة كانت، وأن الإشارة إلى الغلط في الكلام تدل على وجود معيار في اللغة، وأن شعوب العالم كلها تحرص على سلامة لغتها وقوتها، وتنقيتها من الشوائب، وأنها تسعى دائماً إلى الارتقاء بها نحو الأفضل، ويدل هذا على أن هناك دائماً مستويين في اللغة، وهما مستوى اللغة، ومستوى الكلام، ولا بد من الفرق بينهما.

ولعل من أحدث ما وضع في مجال التقريب ين العامية والفصحى كتاب الدكتور شوقي ضيف:"تحريفات العامية للفصحى"(١٩٩٤)، ويعرض في مقدمته ما وضع من كتب في إصلاح ما تخطئ به العامة في الكلام العربي، وأولها كتاب ما تلحن فيه العامة للكسائي (ت ١٨٩ هـ) "وظل أئمة العربية من بعده يعنون

بالتأليف في هذا الموضوع، وتوالت مؤلفاتهم في القرن الثالث الهجري، ومن أهم ما طبع منها إصلاح المنطق لابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) وأدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٤هـ) وكتاب الفصيح لثعلب ت ٢٩١هـ" (ضيف، تحريفات ص ٣).

وتتالت المؤلفات في هذا المجال إلى العصر الحديث، وما تزال، وليس كتاب شوقي ضيف بآخرها، وهي لا تدل على انحدار اللغة وضعفها، بل تدل على توسعها في الاستعمال، واستيعابها لمتطلبات العصر، مما يُحدِث فيها ظواهرَ جديدة، وأساليب جديدة، لم تكن فيها من قبل، ويأتي اللغويون ليبرروا هذه الظواهر الجديدة، أو ليردوها إلى الفصيح، أو ليصوبوها، وهذا ما فعله شوقي ضيف في فصول الكتاب، وهذا ما تفعله مجامع اللغة العربي، فليست مهمتها التخطيء أو التصويب، فقط، بل تقوم في كثير من الحالات بإقرار المستجد أو تسويغه أو تعليله أو تأصيله، وفي هذا ما يؤكد أن اللغة في تطور مستمر، وأنها قابلة لاستيعاب ما يستجد، ومواكبة ما يطرأ.

لقد أقر شوقي ضيف في كتابه ظواهر كثيرة، وعللها، وبررها، في دلالة المفردات وفي لفظها وفي بناء الجملة وتركيبها وفي الاشتقاق، واحتج لذلك بآيات من القرآن الكريم وبقراءات مختلفة لبعض الآيات الكريمة، وبأحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأشعار العرب، وبلهجاتهم، وقبل أشياء قد لا يقبل بها مدرس اللغة العربية في المرحلة الإعدادية، وقدم ما هو مقنع ومبرر، وما فيه حجة بينة، وإذا كان قد رفض بعض الظواهر وصوب، فقد قبل بعضها الآخر، وما قبله كان أكثر، ومن ذلك إدخال نون الوقاية على اسم الفاعل، من مثل:" مقابلني، ومسامحني، ومكرمني، ومخاصمني"، واحتج لذلك بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وببيت من الشعر ليزيد بن محمد الحارثي وبرأي ابن مالك الذي أجازه، وأشار إلى رفض ابن هشام وقد عده شذوذاً (ينظر:ضيف، تحريفات، ص ٤٧) ومن ذلك أيضاً قول العامة: مبيوع ومكيول ومديون ومعيوب، وقد رده إلى لهجة تميم (ينظر:ضيف، تحريفات، ص ٤٨). وفي الكتاب ما يدل على أن في العربية متسعاً للقول، وأنها سهلة وليس فيها من العسر ما يصوره بعض المتشددين.

ويؤكد ذلك أيضاً قرارات مجمع اللغة العربي في القاهرة، فقد أجاز أساليب كثيرة في الاستعمال كما أقر دلالات جديدة، ومن ذلك إقراره استعمال"رصد مالاً"، وصوابه الفصيح "أرصده" (ينظر: عدنان الخطيب، ص ٢٢٣) وأجاز قول الكتاب "وحدوي ووحدوية" وأجاز قولهم" أنا كباحث أقر هذا الرأي" على اعتبار الكاف زائدة أو حرف تشبيه(ينظر عدنان الخطيب،ص ٢٤٣) وفي مثل هذه الإجازات ما يدل على رحابة العربية وسعتها.

وهذا التسامح في الإجازة والتسهيل مبني مثله مثل التشدد في التخطيء والتصويب على مبدأ واحد، وهو المعيار، ويتمثل في العربية الفصحى، والعمدة فيها على نحو ما تقدم: القرآن الكريم أولاً وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والشعر العربي وكلام العرب، والغاية من ذلك كله هي تنقية الكلام من الشوائب ورده إلى اللغة.

ولذلك حافظت اللغة العربية على كيانها، وعلى هويتها، وعلى شخصيتها، طوال خمسة عشر قرناً، ولم تتحول إلى لغات، على الرغم من وجود اللهجات فيها، وهذه اللهجات هي قانون عام، وهي ترجع إلى سببين اثنين، الأول أن اللغة العربية في الأصل ذات لهجات، فلكل قبيلة لهجتها، وحين هاجرت هذه القبائل وانتشرت في بقاع الوطن العربي مع انتشار الإسلام، حملت معها لهجتها وما يزال في كلامها اليوم بقايا من خصائص تلك اللهجات وظواهرها، كما ترجع اللهجات المعاصرة إلى واقع الحياة اليومية، والتباعد في الأماكن والأزمان، ولا بد لهذه اللهجات المعاصرة من أن تنشأ، إذ لا يمكن أن يتكلم الناس في أماكن متباعدة وفي أزمان طويلة اللغة نفسها بنبرة واحدة أو بمستوى صوتي واحد أوبشكل من الأداء النطقي واحد، ولكن تظل لغتهم واحدة في ألفاظها ومعانيها وبناها وتراكيبها، ولا سيما في حال وجود مرجع أساسي هو القرآن الكريم، ومراجع أخرى تحيط بهذا المرجع الأساسي وترفده وهي النحو إعراباً وصرفاً، والشعر العربي، قديمه وحديثه، والإبداع الأدبي، قديمه وحديثه، ومجامع اللغة، والجامعات، والشعور القومي الذي يربط العرب بعضهم ببعضهم الآخر.

وعلى مر العصور كان العرب يسعون إلى ربط العربية بالواقع وربط الواقع بها لما يلحظونه من تغير في الواقع وفي اللغة، وهم يريدون دائماً لهذه اللغة أن تجاري الواقع وتبقى حية، وقد كان لهم ذلك، فالأوائل جمعوا اللغة، ووضعوا لها قواعد في النحو والصرف والنطق والكتابة، وكان منهجهم في ذلك وصفياً، وفي جيل لا حق وضعوا كتباً تظهر خصائصها وجمالها وهو ما أسموه فقه اللغة، ووضعوا كتباً تنقيها من الشوائب والأخطاء، وهو ما سمي بكتب اللحن، ثم سعوا إلى تطويرها، أو تسهيلها، وكانوا في ذلك معياريين، أي إنهم استندوا إلى معيار، وهو ما تم جمعه من لغة والوصول إليه من قواعد، ولكنهم ما كانوا معياريين بالمطلق، بل كانوا وصفيين أيضاً، لأنهم درسوا اللغة في واقعها، ومن أجل ما هي عليه في الواقع الجديد المتغير بذلوا ما بذلوا من جهد في سبيل تطوير اللغة، وتأكيد قدرتها على مواجهة العصر، والاستجابة إلى متطلباته، وتلبية حاجاته، واستيعاب علومه، ثم سعوا إلى تسهيلها وتبسيطها، أو بالأحرى تسهيل علومها وتبسيطها، ولا سيما علوم النحو، وظل هذا كله مرتبطاً بالقرآن

الكريم، والدين الإسلامي، وظل هذا كله مرتبطاً بالخوف على العربية، ومواجهة التحديات.

ولقد ميز الدكتور تمام حسان بين المعيارية والوصفية، كما ميز بحدة بين الاستعمال ودرس اللغة، وقد أكد تفريقه:" تفريقاً متعمداً بين ناحيتين من نواحي النشاط اللغوي، هما ناحيتا الاستعمال اللغوي، والبحث اللغوي، فالاستعمال اللغوي وظيفة المتكلم، والبحث اللغوي وظيفة الباحث، والاستعمال تطبيق لأسس معينة غير واضحة عند المتكلم، والبحث تفتيش عنة هذه الأسس حتى تكون واضحة عند الدارس، والاستعمال باعتباره تطبيقاً يتوخى معايير معينة، ولكن البحث باعتباره تفتيشاً يستخدم الاستقراء ليصل منه إلى وصف الحقائق التي يصل إليها الباحث، فمن أوضح وسائل البحث الوصف...المتكلم خاضع للعرف، والباحث خاضع للمنهج" (تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٤-٥).

وقد انتقد كتب النحو واللغة والبلاغة لأنها غلبت المعيارية على الوصفية، ولم يكد يستثني سوى كتب أو كتابين، وهو يقول: " وإن هذه المعيارية لتتضح في طريقة التناول كما تتضح في طريقة التعبير، في جمهرة كتب النحو والصرف والبلاغة، لا نكاد نستثني منها إلا قلة ظهرت في أول عهد العرب بهذه الدراسات، فقامت على الوصف في الكثير من أبوابها، ولم تقع في المعيارية، حين وقعت فيها إلا من قبيل التوسع في التعبير، من ذلك كتاب سيبويه وكتابا عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، فلما انتهى عصر الاستشهاد وكان على اللغويين أن يستمروا في دراسة اللغة أن تتجدد الشواهد في أيديهم، وجدوا أنفسهم بموضع اضطروا فيه إلى أن يدوروا حول ما وضعه السلف من قواعد، فجعلوا كلامهم عنها لا عن مادة اللغة" (تمام حسان، بين المعيارية والوصفية، ص ٤).

وإذا استبعدنا المؤلفين في النحو واللغة والبلاغة لغايات تعليمية، ممن يجمعون، ووقفنا عند الباحثين، فإن التفرقة بين المعيارية والوصفية غير واقعية، فقد كان أولئك الباحثون وصفيين باستقرائهم الأمثلة والشواهد، وكانوا معياريين في الوقت نفسه، لأنهم كانوا، وهم يستقرئون، يسعون إلى البحث عن الأصح والأفصح والقياسي والمطرد، وكانوا يردون الشاذ والمختلف والمنفرد، بل كانوا لا يأخذون ببعض القراءات للقرآن الكريم، وكانوا لا يأخذون إلا عن القبائل التي لم تفسدها الحضارة، وفي يقول الدكتور شوقي ضيف:" وأما من حيث الاستقراء فقد اشترطوا صحة المادة التي يشتقون منها قواعدهم، ومن أجل ذلك رحلوا إلى أعماق نجد وبوادي الحجاز وتهامة، يجمعون تلك المادة من ينابيعها الصافية التي لم تفسدها الحضارة، وبعبارة أخرى رحلوا إلى القبائل المتبدية ...وهي قبائل تميم

وقيس وأسد وطيئ وهذيل وبعض عشائر كنانة" (ضيف، المدارس النحوية، ص ١٨-١٩).

ولعل في هذا ما يؤكد أن اللغة العربية لغة معيارية، وأن مرجعها الأول هو القرآن الكريم، وهو الذي حفظها، فهو مصدر التشريع في كثير من الدول العربية والإسلامية، وهو مصدر قوانين كثيرة في البيع والشراء والميراث والزواج والطلاق، وغير ذلك من مظاهر الحياة وجوانبها، ويقف إلى جانب القرآن الكريم الحديث الشريف، مما يؤكد أن اللغة العربية هي لغة الدين والحياة، ولهذا فإن اللغة العربية ستظل محفوظة وفق وعد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، في قوله تعالى:"إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون"(سورة الحِجْر ١٥ الآية ٩) .

ولعل من الخطر أن تفهم الآية الكريمة فهماً غير دقيق، فقد ينساق الإنسان العادي وراء فهم ساذج، فيتواكل، ويقول:" إن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن، وستكون اللغة العربية محفوظة، بحفظ الله تعالى للقرآن الكريم"، وهذا صحيح، إن حفظ المولى تعالى للقرآن الكريم قد يعني بالضرورة حفظ اللغة العربية، ولكن لا يعني بالضرورة قوة اللغة وانتشارها وحضورها، ولا يعني بالضرورة قوة العرب وحضورهم الحضاري، فقد يكون الحفظ للقرآن الكريم بلغته العربية عند أقوام غير عرب، لهم لغتهم القومية، ولكنهم يرتلون القرآن حين يرتلونه بالعربية، ولكنهم بعد ذلك لا يفقهون من العربية إلا القليل، وقد يفقهون معانيه، ويأخذون بأحكامه وتشريعه، لكن بلغتهم القومية، كما هو الحال في تركية وإيران وأفغانستان وباكستان، وقد يكون حفظ الله تعالى للقرآن الكريم بالعربية عند العرب أنفسهم، ولكنهم متفرقون في الأرض، ضعاف، ولا قوة للغتهم ولا حضور لها.

إن الخطر الذي يحدق بالعربية لا يقصد به اللغة العربية بحد ذاتها، أو هي وحدها، إنما يقصد به العرب، وهم يسعون إلى تحقيق وحدتهم، وتأكيد أنهم شعب واحد، صاحب لغة واحدة، وثقافة واحدة، وتاريخ واحد، وآمال واحدة، وليس المقصود اللغة العربية بحد ذاتها، إنما المقصود هو أي مشروع يسعى العرب إلى النهوض به، أياً كان هذا المشروع، سواء في ذلك المشروع القومي أو الاشتراكي أو القطري أو الديني أو الديموقراطي أو الاقتصادي الحر، لأنه لا يراد للشعب العربي أن ينهض، في أي قطر من أقطاره، تحت أي شعار أو نظام أو شكل. والهجوم على العربية هو أحد أساليب ذلك التحدي، هو شكل من أشكال نظرية المؤامرة المستمرة، وهي مؤامرة لا يمكن إنكارها أو إغفالها، فهي قائمة ومتحققة بأساليب خفية وأخرى ظاهرة، وبأشكال مباشرة وأخرى غير مباشرة.

ولذلك لا بد من القول بمعيارية اللغة العربية، أي الاحتكام إلى مراجعها الأساسية، وهي القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي القديم وكلام

العرب، والإرث النحوي واللغوي والبلاغي، من أجل تطوير اللغة العربية، والنهوض بها، لأن اللغة العربية ليست ابنة القرن العشرين، ولا يمكن إلغاء تاريخها العريق، وإرثها الغني، ولا بد من تطويعه لتصبح من خلاله لا بالتخلي عنه قادرة على مواجهة متطلبات العصر، ولا مانع بعد ذلك من الاستفادة من مناهج البحث اللغوي المعاصرة، بما فيها الاستقراء، الذي هو آلة البحث الأولى، ولا غنى عنه لكل باحث، وبما في تلك المناهج من وصفية، وقد أخذ بها الأجداد، ولكن لم يهملوا المعيار، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الباحث المعاصر، إذ لا يمكنه إلا أن يأخذ بالوصفية، وهو يسعى إلى المعيار.

إن كل الدعوات المضادة للغة العربية كانت تسعى سعياً مباشراً أو غير مباشر إلى عزل اللغة العربية عن مرجعيتها الأولى المتمثلة في القرآن الكريم، وتحويلها من لغة معيارية تأخذ بالفصيح، وتحويلها إلى لغة وصفية تأخذ بالكلام العامي، أي حرمانها من الثقافة والحضارة والأدب والتاريخ والدين، وهو أمر لا يمكن أن يتحقق، لأنه يتنافى مع قانون اللغة بمعناها العام، التي لا بد فيها من: لغة وكلام، على نحو ما سبق من كلام سوسير، وهو ما يتنافى مع قانون الحياة، ومع معطيات التاريخ، فقد حرم الاستعمار الفرنسي الجزائريين من لغتهم ومن دينهم وفرض عليهم الفرنسية، ولكن لا بد لكل شعب من لغة، لأنها هويته، وقد استعاد الشعب العربي في الجزائر حريته، واستعاد معها لغته ودينه.

إن كل الحملات المضادة للعربية لم تمنع العربية من البقاء والاستمرار، بل كانت العربية في الحالات كلها تتطور، شاء الحريصون عليها والغيورون أو لم يشأ المحاربون والكارهون، فقد واكبت الحياة، وتطورت بتطورها، واستوعبت العلوم، واستوعبت الصحافة، وجارت الحاسوب والطائرة وتقانات الفضاء والطب، والعربية اليوم حافلة بألفاظ الحضارة، ومع كل حقل من حقوله يتوازى حقل لغوي آخر من الألفاظ والتعابير والصيغ اللغوية القادرة على التعبير عن ذلك الحقل المعرفي والعلمي، ويؤكد ذلك أن كل جيل كان يخشى على اللغة، واللغة ما تزال بخير.

وهذا كله لا يتعارض مع إتقان العرب لغات أخرى كالفرنسية والإنكليزية، فحركة الترجمة ناشطة، ولكن كل ما هو خطير أن تغدو اللغة الأجنبية لغة الحياة اليومية، وأن تصبح لغة التعامل الرسمي في الدوائر الحكومية والدواوين، وتدريس العلوم باللغة الأجنبية ليس في خطورة التعامل اليومي والرسمي باللغة الأجنبية. لا بد أن تتفق الدول العربية على منع التعامل باللغة الأجنبية في الحياة اليومية، والحد من هذه الظاهرة، بل إيقافها، ولاسيما في الدوائر الحكومية وفي الدواوين.

وليس من العلمية في شيء القول بصعوبة اللغة العربية، فليس في لغات العالم ما هو سهل أو صعب، وأكبر دليل على ذلك الطفل الذي يتعلم الصينية أو العربية أو الإنكليزية، وكذلك المستشرق الذي يهتم باللغة العربية فيتقنها أكثر من أصحابها، وكثير من العلماء والباحثين أتقنوا أكثر من لغة. "وإذا كان بنو البشر أكثر المخلوقات تعقيداً فليس من الغريب أن يكون نظام تواصلهم بالغ التعقيد أيضاً" (بيكرتون، ص٧)، وإن نظام النحو الذي يبدو في كل لغات العالم صعباً هو على ما يبدو" صفة من الصفات البيولوجية للنوع الإنساني، تماماً مثل قدرة الإنسان على الوقوف والمشي منتصب القامة وميزة الإبهام في اليد البشرية لا أكثر ولا اقل" (بيكرتون، ص ٣٧)

آفاق المستقبل:

إن أبواب المستقبل مفتوحة أمام العربية، وفي العربية مقومات الحياة والتطور، على الرغم مما في الواقع حولها من قوى التحدي والمحاربة، وما على الناطقين بالعربية من عرب ومسلمين إلا النهوض بالعربية، والتمسك بها، وهم أقوياء بها، وهي قوية بهم، وقد دعت الأمم المتحدة إلى الأخذ باللغات الست الرسمية في الأعمال اليومية بالمنظمة الدولية، وهي الإنجليزية والفرنسية والعربية والصينية والإسبانية والروسية، وتبنت الجمعية العمومية بتأييد ١١٣ دولة من أصل ١٩٢ قراراً أكدت فيه "الأهمية الكبرى للتساوي بين اللغات الرسمية"، ورحبت الجمعية بإعلان عام ٢٠٠٨ "السنة الدولية للغات"، وطالبت الأمين العام للأمم المتحدة "بان كي مون" بتعيين منسق لتعدد اللغات وطلبت منه الحرص على التعامل مع اللغات الرسمية على قدم المساواة.

إن العربية يتعلمها المستشرقون فيتقنونها، ويصبحون من دارسي أدبها ودينها ويتفوقون على العرب الناطقين بها، ويعنى المسلمون بالعربية فيقرؤون القرآن الكريم بها، ويجرون بها بحوثاً إسلامية في الفقه والشريعة والتاريخ الإسلامي يتفوقون بها على العرب أنفسهم، وكثير من الشعراء غير العرب ولاسيما من الأكراد والأرمن ينظمون بالعربية، وقد كان أحمد شوقي من أم تركية، وكان محمد كرد علي كردياً.

إن على العرب أن ينظروا في القرن الحادي والعشرين نظرة جديدة، بعيدة عما أثير في القرن العشرين من صعوبة العربية، أو تيسير العربية، أو مشكلة العامية والفصحى، أو تعليم العلوم بالعربية، فهذه المشكلات تجاوزها الزمن، وعلى العرب أن يوسعوا من أفق مشكلات العربية.

إن لغة القوم هي حاملة تاريخهم والمعبرة عن هويتهم والمعبرة عن شخصيتهم، فاللغة ليست مجرد وسيلة تواصل أو تفاهم، بل وسيلة للتعبير عن العواطف والانفعالات الفردية والجماعية، وهي الحامل لتاريخهم وهي متطورة

بتطورهم ومتغيرة بتغيرهم، ولذلك لا يتحقق الاستقلال الصحيح إلا باستقلال اللغة ولا يتحقق النهوض الصحيح إلا بنهوض اللغة، ولا يعقل أن يكون النهوض بلغة أمة أخرى.

يقول أحمد حسن الزيات: "استقلال اللغة مظهر استقلال الذات، ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأي والهوى والثقافة، فغذا سمعت امرأ يتكلم غير لغته من غير ضرورة أو يلهج بغير لهجته من غير مناسبة فلا يخامرك شك أنه كذلك في خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله، وإذا رأيت أمة تدير في أفواهها ألسنة الأمم وتستعير في أعمالها دلالات الناس فلا تتردد في الحكم عليها بالتبعة المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفق" (الزيات، ص ٣٣٦).

وعلى العرب أن يسعوا إلى نشر لغتهم في الآفاق، فليست لغتهم أقل من غيرها في إمكان انتشارها وحملها العلوم، وهي التي أدت هذه الرسالة من قبل: "وقد أوضح برجشتريسر بإيجاز مقنع أن اللغة العربية قدمت منذ البداية الأداة الكافية للتعبير العلمي الدقيق، ولم تحتل العربية هذه المكانة الرفيعة بذاتها ولكن الموقع المركزي للعربية بوصفها لغة الدين الإسلامي والإداري هو الذي أدى إلى تطويعها لتلائم المتطلبات العلمية، وهذا النجاح الذي حققته عملية تطويع اللغة العربية إنما كان إلى حد كبير نتيجة لجهد متعمد مقصود لذاته والدليل على ذلك

إن اللغة ظاهرة اجتماعية، وهي نشاط كلي شامل، وليست نشاطاً جزئياً معزولاً، أو مجموعة أنشطة جزئية معزول بعضها عن بعضه الآخر، فاللغة لا تتمثل في مجمع اللغة العربية أو في كلية الآداب، إنما تتمثل في جوانب الحياة كلها، وفي مؤسسات المجتمع كافة، والاهتمام باللغة العربية لا يعني الاهتمام بالنحو والصرف وتبسيط دروسهما، ولا يعني وضع مناهج جديدة وكتب جديدة، كما يتوهم كثير من الناس، بل كما يظن كثير من المختصين، بل يعني نهوض المجتمع كله باللغة.أن الأعمال العلمية العربية يمكن أن تفهم جيداً دون حاجة إلى معرفة عميقة بالشعر القديم أو النثر" (بوبو، ص٤).

إن القول بصلاح هذه اللغة للعلوم وعدم صلاح تلك، أو قدرة هذه اللغة على استيعاب العلوم وعدم قدرة تلك، قول مردود، لأن اللغات كلها متساوية من حيث المبدأ في القدرة على التعبير عن العلوم والفنون والآداب والمشاعر والعواطف، إن"افتراض أن كل شيء يمكن أن يترجم إلى أي لغة مما يعني ضمناً أنه من الممكن من حيث المبدأ أن نتكلم عن كل شيء في كل اللغات" (كولماس، ص٨٧).

إن اللغة ظاهرة اجتماعية تعرفها شعوب العالم كافة، وبها يتواصل الأفراد، وينقلون خبراتهم وتجاربهم، ويعرفون العالم، ويدرسونه، وهي حاملة علمهم

وأفكارهم وتاريخهم، ولا فضل لقوم على قوم باللغة، إنما الفضل بما يقدمه القوم أنفسهم للعالم من خبرات وتجارب وعلوم ومعارف من خلال لغتهم، وهم يتفوقون بما أنتجوا من هذه العلوم، ولا يتفوقون بلغتهم، ومن هنا تعد لغات العالم كلها من حيث المبدأ متساوية في المقدرة على التعبير.

" إن الأداء اللغوي ليس خاصاً أو حكراً على أمة بعينها، إنما هو عام، يتم وفق نشاط عقلي، ومحاكاة ذهنية، تحقق منها التقدم العلمي وصورها على أنها تلق للأصوات التي تلتقطها الأذن الخارجية وتسلمها للأذن الوسطى فالداخلية التي تصلها بدورها عبر شعيرات دقيقة جداً هي الأعصاب الناقلة للأصوات إلى مركز اللغة في المخ، حيث يتم تحليلها والاستجابة لها، فهماً وتكيفاً وأداء، وهذه العمليات الذهنية الفيزيولوجية والنفسية لا تخضع لعمليات تحسين النسل أو لرقابة الاستخبارات ولا لتمييز عنصري...فالذهن البشري السوي خلقة متشابه والتفاوت في قدرته على الإدراك والتفوق قضية لاحقة، قضية تدخل في تكوينها مجموعة عوامل كالدربة وطبيعة النشأة والرعاية، وتهيئة الحوافز على الإبداع وإعمال العقل، لا على أن الله سبحانه وتعالى خص الإنكليز مثلاً بلغة تصلح للعلوم، وخص العرب بلغة تصلح للغناء والعبادة والتثاؤب والمقامات...ومقدرة اللغة على التعبير عن العلم أو النفس أو الكون هي مقدرة حامليها على تطويعها لذلك، وصلاح أهلها للعلم يعني صلاحها لذلك...وإذا ما أحسن العقل تطوير اللغة والإفادة من كنوزها استطاع أن يجد في خبيئها معادن ثمينة تصلح للعلم في مختلف صوره" (بوبو، ص ٢- ٣) .

وما على العرب إلا السعي لنشر لغتهم في العالم كله، وهي التي انتشرت من قبل، بفضل تطورهم الحضاري، لا بفضل خصائص تميز اللغة العربية في حد ذاتها، فليست السهولة معياراً للانتشار، ولا الصعوبة معياراً لعدم الانتشار، والذين يقولون إن العربية صعبة يرد عليهم بانتشارها في عصور ازدهارها في العالم كله، يقول جبر ضومط (١٨٥٨ - ١٩٣٠) (١٩٢١) "كانت مدارس الأندلس العربية في إبان عزها بالنسبة إلى بلدان أوربة كمدارس أوربة وأمريكا اليوم إلى البلدان العربية في آسيا وإفريقية، وكانت اللغة العربية لغة العلم وعنها يترجمون" (كامل الخطيب، ص ١٩)، ولقد أنشأ الفونسو العالم (١٢٥٢ - ١٢٨٤) مدرسة المترجمين في طليطلة، وكانت "تنقل عن التراث العربي كثيراً من الفلسفة والمنطق والطب والفلك والرياضيات والطبيعة" (الصالح، ٣٥٦)

إن ما يساعد على قوة اللغة أن انتشارها هو القوم الناطقون بها، لا خصائصها الذاتية، "فليست الخصائص الكامنة أساساً في اللغة هي المسؤولة عن انتشارها في العالم، بل هي قيمتها الاستعمالية الكبيرة التي كانت تزداد باطراد في أثناء عرضها في سوق اللغات الأجنبية...ويلاحظ توينبي بأن اللغة التي تحرز

هذا النوع من النصر على منافساتها تدين عادة بنجاحها للميزة الاجتماعية للعمل كأداة لجماعة معينة ذات تأثير قوي سواء في الحرب او التجارة، والبلاد المتحدثة بالإنكليزية هي اليوم في مجموعها إلى حد بعيد أكبر سوق مستوردة في العالم ونسبة البريد العالمي الذي يكتب بالإنكليزية يقدر ٧٠% كما أن ٨٠% من كل المعلومات المخزنة في بنوك المعلومات مخزنة بالإنكليزية، ولذلك فإن الوعي الاقتصادي وحده هو الذي يجعل البلاد المصدرة في العالم غير المتحدث بالإنكليزية يفضل اللغة الإنكليزية على كل اللغات الأجنبية الأخرى"(كولماس، ص ١٠٧).

خاتمة:

إن على العرب أن يفكروا في العصر الحاضر بلغتهم تفكيراً اقتصادياً وهم الذين يملكون أكبر مصدر للطاقة، وهو النفط، ويقعون في منطقة من العالم هي من أكثر المناطق أهمية في الشؤون السياسية والاقتصادية والاتصال والمواصلات، فهم في القلب من العالم، وبإمكانهم أن يفرضوا على المتعاملين معهم في أي مجال من المجالات الاقتصادية والسياسية تعلم لغتهم العربية، وأن ينشئوا لذلك مدارس خاصة لتعليم الأجانب اللغة العربية، وأن يستثمروا مواردهم الاقتصادية في هذا المجال، "إن اللغات يمكن أن تعد مشروع استثمار رأسمالي بالمعنى الحرفي وليس بالمعنى المجازي، وأهم الاستثمارات التي تساهم في تحسين الانتفاع اللغوي هي ما يلي:١) تصنيف المعاجم للاستعمال العام، وكذلك معاجم المصطلحات في مجالات متعددة ٢) برامج معالجة النصوص ٣) الترجمة الآلية ٤) الذكاء الصناعي٥) تحسين الاتصال بين الإنسان والآلة، أي تطويع لغات الكومبيوتر للغات الإنسانية(كولماس، ص ٩٥).

وعلى العرب أن يفيدوا من العصر الرقمي، وأن يستعينوا بالحاسوب والشابكة لتطوير لغتهم ونشرها في العالم كله، وإنتاج برامج تعليمية بلغات مختلفة وبمستويات مختلفة تعلم العرب والأجانب اللغة العربية وتعرفهم إلى تاريخها وتراثها، وتوضح لهم خصائصها وطاقاتها وقدرتها على مواكبة العصر وإنتاج الحضارة. وبإمكانهم وهم في قلب العالم وكثير من الخبراء يعملون في أرضهم ألا يمنحوا الإقامة لأي عامل أو خبير أجنبي إلا بعد أن يتقن اللغة العربية كتابة وكلاماً، وبعد اجتيازه اختبار مقدرة لغوية، على نحو ما تفعل الدول الأوربية إذ لا منح الإقامة إلا لمن يتقن لغتها.

ولا بد من العناية بالتعليم من مرحلته الابتدائية إلى مرحلته الجامعية والدراسات العليا، ومن الضروري رصد ميزانية جيدة للتعليم والبحث العلمي، تعادل الميزانية التي ترصد للرياضة ووسائل الإعلام والتسليح، ولا بد من زيادة عدد الأبنية المدرسية والجامعية لتستوعب الأعداد المتزايدة من الطلاب،

ومواجهة النمو السكاني، وتطوير المناهج، وتحسين الكتاب المدرسي والجامعي، وتشجيع العاملين في حقل التعليم بمراحله كافة، وزيادة دخلهم، بمنحهم حوافز خاصة، ومن الضروري زيادة ساعات التدريس لمادة اللغة العربية، وجعل اللغة العربية مقرراً درسياً في سنوات الدراسة الجامعية، ووضع شرط إتقان العربية على كل من سيعين مدرساً للمواد التدريسية كافة في مراحل التعليم كله، ولا بد من إقامة دورات للطلاب وأخرى للمدرسين تمكنهم من اللغة العربية وتدربهم على الإلقاء بالعربية الفصيحة.

ومن الممكن تشجيع المتخرجين في قسم اللغة العربية بتعيينهم في المؤسسات والوزارات بوظيفة مدقق لغوي لمراجعة كل ما يصدر عن هذه المؤسسات من كتب وقرارات، وفي هذا ما يساعد على تنقية العربية من الأخطاء، ويرفع من مكانة المتخرج في قسم اللغة العربية، ويمنح الشهادة الجامعية قيمة اجتماعية.

وبإمكان العرب أن يستفيدوا من الفضائيات في إعداد برامج تعليمية خاصة ذات مستويات مختلفة بعضها يعلم العربية للعرب وبعضها يعلم العربية للأجانب، بالإضافة إلى برامج أخرى تعرف الجميع بالحضارة العربية ودور اللغة فيها، وبرامج تكشف عن أسرار العربية وبلاغتها وقدرتها على استيعاب العلوم، وتحبب الناس بها، وتقربها إليهم.

ولا بد من تطوير الأغنية العربية، للسمو بها، وإنقاذها من الهبوط الفني والقيمي والأخلاقي واللغوي، فهي التي تخاطب كل يوم الملايين، وتتغلغل إلى أعماقهم، وتصوغ ذوقهم، وقبول الهابط في الفن والتعامل اليومي معه يقود إلى قبول الهابط في المعاملات والعلاقات في المجتمع، بل يقود إلى الفساد بمختلف معانيه وأوجهه وأشكاله.

ولابد من العناية بوسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز، ولا بد من وضع شرط إتقان العربية على العاملين في هذه المجالات، وإخضاعهم لدورات تدريبية مستمرة لتحسين أدائهم اللغوي وتطويره.

ولا بد من التشجيع على التأليف والنشر بالعربية الفصيحة، وحفظ حقوق المؤلف، ومنحه مكافآت تشجيعية، ودعم المؤسسات الثقافية الرسمية والخاصة لنشر الكتاب وتوزيعه بأسعار رخيصة، وإقامة المسابقات الثقافية للمؤلفين والباحثين والقراء.

ولا بد من العناية بالمستوى العام من العربية في الإعلانات وأسماء المحلات والبضائع والمصنوعات والمنتوجات، واشتراط أن تكون كلها بالعربية الفصيحة وبحروف عربية، وسن قوانين رادعة تمنع أي مخالفة في مثل هذه المجالات.

وبإمكان السفارات العربية أن تقوم بدور كبير في تعريف العالم باللغة العربية، وإقامة معارض الكتب والمهرجانات الأدبية وتوزيع الكتب والنشرات وإقامة دورات لتعليم العربية وتقديم منح دراسية للأجانب لتعلم العربية في البلاد العربية .

ولا بد من تشجيع النوادي الخاصة والجمعيات الأهلية والمؤسسات الثقافية الرسمية كي تنهض بدورها في نشر الثقافة بالعربية الفصيحة وتزويدها بكل ما تحتاج إليه من كتب ونشرات وحواسيب ووسائل اتصال.

ولعل أول ما يجب الاهتمام به وتطويره هو التعليم، لأنه المهد الأول للغة، ولأنه القطاع المنتج في المجتمع، والفاعل فيه، بخلاف تصنيفه بقطاع مستهلك في بعض البلاد العربية، فهو ينتج العقول، ويصوغ الوجدان، وينمي الوعي، ويخلق المواطن.

وليس المقصود بتطوير التعليم تطوير المناهج، وإعادة تأليف كتب جديدة لا تختلف عن الكتب القديمة إلا في أسماء المؤلفين، وإنما المقصود بتطوير التعليم تطوير المؤسسة التعليمية بعناصرها كافة من البناء الحجري إلى المعلم في الصف والتلميذ وراء المقعد.

إن اللغة ظاهرة اجتماعية، وهي نشاط كلي شامل، وليست نشاطاً جزئياً معزولاً، أو مجموعة أنشطة جزئية معزول بعضها عن بعضه الآخر، فاللغة لا تتمثل في مجمع اللغة العربية أو في كلية الآداب، إنما تتمثل في جوانب الحياة كلها، وفي مؤسسات المجتمع كافة، والاهتمام باللغة العربية لا يعني الاهتمام بالنحو والصرف وتبسيط دروسهما، أو تصويب كلمة وتصحيح جملة، كما يتوهم كثير من الناس، أو كما يظن كثير من المختصين، بل يعني نهوض المجتمع كله باللغة.

وفي هذا ما يؤكد أن المشكلة ليست في اللغة في حد ذاتها، وإنما في المجتمع، وأن الحل ليس في اللغة وحدها منعزلة، وإنما في المجتمع، وفي هذا ما يمثل رداً على دعاة العامية، أو الحروف اللاتينية، إن استخدام العامية لا يحقق النهوض بالمجتمع ولا النهوض باللغة، وكذلك استخدام الحروف اللاتينية، بل إنهما يقودان إلى انحدار اللغة، وتخلف المجتمع.

ولا بد إذن من تضافر الجهود وتعاونها في شتى ميادين الحياة، ليكون هدفها الرقي باللغة، بطرق وأساليب ووسائل شتى، وبهذا النهوض الاجتماعي العام يكون نهوض اللغة والمجتمع معاً.

المراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. بوبو، د.مسعود، أبحاث في اللغة والأدب، دار شمأل، دمشق، ١٩٩٤.

٣. بيكرتون، ديريك، اللغة وسلوك الإنسان، تر. د. محمد زياد كبة، مطبوعات جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠١.
٤. جوزيف، جون، اللغة والهوية، تر. عبد النور خراقي، عالم المعرفة، العدد ٣٤٢، أغسطس آب، ٢٠٠٧.
٥. حسان، تمام، اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب العربي، ١٩٩٢.
٦. خشيم، علي فهمي، سفر العرب الأمازيغ، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ١٤٢٤ ميلاد الرسول محمد.
٧. خشيم، علي فهمي، لسان العرب الأمازيغ، معجم عربي بربري مقارن، ج١، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط.أولى ١٤٢٤.
٨. الخطيب، د.عدنان، العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦.
٩. الخطيب، محمد كامل، اللغة العربية، القسم الرابع، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤.
١٠. الدقاق، د.عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، دار الشرق، حلب، ١٩٦٣.
١١. دورل، مارتن، "اللغة انتماء جغرافي"، الموسوعة اللغوية، المجلد الثالث، تحرير ن.ي. كولنج، تر. محيي الدين حميدي، ود. عبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، ١٩٩٩ م ١٤٢١ هـ
١٢. دي سوسير، فردينان، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح الفرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٥.
١٣. الزيات، أحمد حسن، وحي الرسالة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، المجلد الأول، ط.سادسة، ١٩٥٧.
١٤. السيد، د.محمود، في طرائق تدريس اللغة العربية، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٨.
١٥. الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط.ثالثة، ١٩٦٨.
١٦. ضيف، د.شوقي، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط.ثالثة، لاتاريخ.
١٧. ضيف، د.شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٨.

١٨. ضيف، د.شوقي، تحريفات العامية للفصحى، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٩٤.
١٩. العدناني، محمد، معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.
٢٠. العقاد، عباس محمود، اللغة الشاعرة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٥.
٢١. الفرج، علي، كائن اللغة، مؤسسة أم القرى، بيروت، ١٤٢١ هـ
٢٢. الفيصل، سمر روحي، اللغة العربية الفصيحة في العصر الحديث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٣.
٢٣. القروي، رشيد سليم الخوري، ديوان الشاعر القروي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،ج١وج٢، ١٩٨٣.
٢٤. كولماس، فلوريان، اللغة والاقتصاد، تر.أحمد عوض، مر.عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٣، تشرين الثاني، ٢٠٠٠.
٢٥. هلال، عبد الغفار حامد، اللهجات العربية نشأة وتطوراً، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨.

الحاسوب وتنمية المقدرة اللغوية

مقدمة:

أول ما قد يفهمه المرء من المقدرة اللغوية امتلاك عدد أكبر من الألفاظ، أو القدرة على الكلام، أو التواصل مع الآخرين، وهذه هي بعض أشكال المقدرة اللغوية، وليست كلها، إن المقدرة اللغوية تتضمن عدة مهارات، هي: التواصل، القراءة، الكتابة، الفهم، التفكير، تحصيل المعرفة، امتلاك الثقافة، تحقيق الهوية القومية، وهذا العرض لهذه المهارات لا يعني الترتيب، فهي مهارات متكاملة، ولا يعني أنها بمثل هذا التبسيط، إذ تتضمن كل مهارة عدة مهارات أخرى فرعية، والمطلوب فيها جميعاً، هو التحسين والارتقاء نحو الأفضل، وليس مجرد الأداء.

والمرجو أيضاً ألا يتوقع من الحاسوب أن يكون العصا السحرية التي بإشارة منها وفق الخيال يتحقق كل شيء، فما الحاسوب إلا أداة معينة، ويبقى الدور الأول هو للإنسان الذي يتعامل مع الحاسوب، ولكن هذا لا يلغي الدور الكبير للحاسوب.

أولاً - اللغة والحاسوب:

إن الحاسوب مثل المعجم، أو الآلة الحاسبة، والمعجم وحده لا يصنع من قارئه متمكناً من اللغة، وإن كان يساعده على ذلك، كما أن الآلة الحاسبة وحدها لا تصنع من المتعامل معها متمكناً من الرياضيات، وإن كانت تساعده على ذلك.

إن اللغة وسيلة، والحاسوب أداة، والفرق بين الأداة والوسيلة واضح، فالوسيلة عنصر مكون يدخل في العمل ويبقى داخله، ولا يزول إلا بزواله، والأداة شيء خارجي معين، يساعد على إنتاج العمل، ولكنه يبقى خارجه، ويزول والعمل لا يزول، فالألوان في اللوحة والكلمات في القصيدة والحجر في التمثال والنغم في اللحن وسائل، والريشة للوحة والقلم للقصيدة والإزميل للحجر والقيثار للّحن أدوات، ولذلك لا يغير في العمل إن كانت الريشة من شعر حصان أو من أليـاف صناعية، أو كان الإزميل يدوياً أو كهربائياً، أو كان القلم من حبر أو رصاص، أو كانت الكتابة بخط اليد أو بالحاسوب، أو كان القيثار عادياً أو إلكترونياً، وفي الحالات كلها يظل الدور الأول للإنسان، ولكن لا يمكن إنكار دور الأدوات، لأن لها تأثيراً لا يمكن أن ينكر.

لقد اعتاد الإنسان على اختراع أدوات مساعدة، فقد اخترع العجلة ليتمكن من نقل الأشياء الثقيلة والانتقال، فوفر الوقت والجهد، وحقق السرعة، واخترع المنظار فنمى قدرته على الرؤية، واخترع السماعة فعمق قدرته على السمع، وما

زال يخترع، ولقد كان يسير آلاف الأميال على قدميه، وهو اليوم لا يقطع مئات الأمتار إلا بوسيلة من وسائل الانتقال، وقد اخترع أدوات كثيرة، وطور فيها، وطور بها حياته.

ومن الأدوات التي اخترعها الإنسان الكتابة ثم الأبجدية، وهي للكلام كالنظارة للعين، وكالمعول لليد، وكما ساعدت النظارة العين وكما ساعدت المعول اليد، كذلك ساعدت الأبجدية اللغة، ولولا الكتابة ولاسيما الأبجدية لما حفظ الإنسان خبراته ولما طورها، ولا يقل اختراع الأبجدية أهمية في عصرها عن اختراع الورق، ولا يقل أهمية عن اختراع الطباعة، ولا يقل أهمية أيضاً عن اختراع الحاسوب، بل ربما كان اختراع الأبجدية هو الأهم، إذ لولا اختراع الأبجدية لما كان اختراع الورق ولا المطبعة ولا الحاسوب.

ولا يمكن القول إن الإنسان اخترع اللغة، لأن اللغة هي نتاج تركيبه العضوي، ومركزها في الدماغ، وأدواتها الجهاز الصوتي، المؤلف من الفم والأسنان والشفتين واللسان والحلق، والحبال الصوتية والرئتين، إن ما اخترعه الإنسان هو الكتابة أولاً بأشكالها المختلفة، ثم الأبجدية.

ولكن مما لاشك فيه أن اللغة هي ما يميز الإنسان، " إذ كما يقول هيدجر:" فقط حيث توجد اللغة يوجد عالم، ولما كان التاريخ لا يصير ممكناً إلا في عالم اقتضى ذلك أنه حيث توجد اللغة يوجد التاريخ، فاللغة هي التي أوجدت الحضارات، إذ إن الذي يمنع الحيوانات من أن تكون لها حضارة هو في المحل الأول افتقارها إلى اللغة، وبالتالي عدم وجود قدرة كلامية وفكرية تساعدها على مواصلة تجاربها وخبراتها، وكما يقول هوجر:" فما يكتسبه القرد مثلاً من معرفة في حل مشكلة ما يظل خبرة استقرارية راكدة مقصورة عليه هو وحده، وقد يتذكرها حين يصادف نفسه إزاء مشكلة مشابهة أو موقف مماثل، ولكنه في الفترات التي تتخلل ذلك لا يعكف على التفكير في تلك الخبرة أو التجربة بقصد تحسينها أو استخلاص أي نتائج منها في حل المشكلات الأخرى، مثلما يفعل الإنسان الذي يناقش مشكلة عن طريق اللغة، ويفكر فيها بعد انتهائها ليرى ما إذا كانت هناك تطبيقات أخرى ممكنة لتلك المعرفة، فباللغة والتفكير تكون خبرات الإنسان وتجاربه مستمرة ومتصلة، وهذا يساعد على تطويرها وتنميتها، فوجود اللغة يساعد الإنسان على أن يشارك الآخرين خبراتهم وأفكارهم مثلما ينقل إليهم هو خبراته وأفكاره، وذلك بعكس الحال عند القردة العليا التي تعجز عن نقل خبراتها على الأقل بالطريقة نفسها، وعلى المستوى نفسه من التفكير المجرد الذي نجده في الجماعات الإنسانية، ومن هنا كانت الميزة الكبرى التي يتميز بها الإنسان هي القدرة على نقل تلك الخبرات التي تؤلف في آخر الأمر التراث الحضاري أو الثقافي من جيل إلى آخر عبر الزمن". (السيد ص ١٩)

" ولقد قام كيلوج وكيلوج بتجربة مثيرة على القرد جيوا وطفلهما دونالد، فقد ربيا الطفل والقرد معاً بالمنزل، لعدة أشهر، وبينما كان القرد قادراً على إنجاز الكثير من الأنشطة الحركية الملحوظة، وأكثر قدرة على القيام بكثير من الاستجابات الحركية، إلا أنه لم يكتسب أبداً القدرة على الكلام الحقيقي، لقد كان قادراً على الاستجابة للأوامر البسيطة التي توجه إليه مثل قف واذهب، ولكن لم يكن هناك دليل على قدرته على ربط استجابة صوتية ما بشيء معين، أو مجموعة من الأشياء". (غنيم، ص ٩١)

واللغة ليست وسيلة تواصل فحسب، فهذا هو الحد الأدنى من وظيفة اللغة، وبهذا المعنى تمتلك بعض الكائنات لغاتها، كالنحل والنمل والطيور والقردة، ولكن اللغة التي يستخدمها الإنسان تختلف الاختلاف كله، فهي ليست من أجل التواصل أو التفاهم فحسب، ولو كانت كذلك لتم فيها الاكتفاء ببضعة أصوات، أو لما كان فيها النظام النحوي والصوتي، ولما كان فيها المجاز، ولو كانت لغة تواصل فحسب لتم الاكتفاء بالقول: موجة بحر، ولما قيل: موجة حر، وموجة برد، وموجة غضب، وموجة فرح، وموجة تغيير، وموجة جنون، ولو كانت للتواصل لتم الاكتفاء بالقول: الشجرة ثمر، ولكن نحن نقول: تثمر الشجرة، والشجرة تثمر، وأثمرت الشجرة، وكانت الشجرة مثمرة، وسوف تثمر الشجرة، فاللغة تتجاوز التواصل، فهي تنقل الانفعال، بوضوح ودقة وتعبر عنه، وتسميه، وهي تحفظ الخبرات والتجارب وتحولها إلى معطيات وحقائق وعلوم، وهي وسيلة لإبداع الآداب والفنون، وهي وسيلة لتطوير العلوم، وهي الحافظة لثقافات الشعوب، والحاملة لهويتها، وربما لولاها لما تطورت حياة الإنسان.

وكما يقول بيكرتون: "إن اللغة الإنسانية لا تقف عند حدود التعبير عن رغبة الفرد أو مشاعره، ولا عند تأثير في الآخرين، مع أننا كثيراً ما نستخدمها في أداء هذه الوظائف، بل تعبر أيضاً عن كم لا نهاية له من المعلومات التي لا تقتصر على أرقام الهواتف والمهن والأذواق في اختيار الموسيقا وألوان الطعام، بل تشمل أيضاً حجم الكرة الأرضية الحقيقي، وعمر الكون التقديري، والمبادئ الأساسية في التسويق والرياضيات وطبائع الخنافس وسلوك البروتونات والأحداث التي شهدتها مدينة مدريد يوم ٢ مايو أيار ١٨٠٨ وهذه جميعها أشياء لا علاقة لها بما يريد المتكلم أو الكتاب في لحظة الكلام أو الكتابة". (بيكرتون ص ٥).

إن تنمية المقدرة اللغوية لا تعني أن يصبح المرء متمكناً من اللغة، مجيداً للكلام أو الحوار، فحسب، بل تعني قادراً على الفهم، والتفكير، وتلقي العلوم، والمشاركة في البناء والتطوير، وأن يحتفظ بهويته القومية، ويتمثل ثقافتها وعاداتها، إن تنمية المقدرة اللغوية لا تعني أن ينظم المرء الشعر، أو يكتب قصة

أو يحفظ كلمات معجمية، إنما تعني أن يمتلك الوسيلة التي يحقق بها ذاته، ويثبت حضوره، وبها يتلقى العلوم، ويطور حياته.

ويمكن أن نتحدث في اللغة عن مستويين، المستوى الأول من اللغة يتمثل في النحو والقواعد والمعاجم والمفردات والأصوات ومؤلفات الأدب والعلوم وملايين الكتب المطبوعة، وهذا المستوى من اللغة ذو مستويات أيضاً، والمستوى الثاني من اللغة يتمثل في الكلام اليومي الذي يقال في السوق والبيت والشارع والاجتماعات والاحتفالات والندوات ويلقى في المدارس والجامعات والمؤسسات الثقافية، وهذا المستوى من اللغة ذو مستويات أيضاً، والمقدرة اللغوية هي ممارسة المستويين السابقين، أي إن المقدرة اللغوية هي امتلاك القدرة على التفكير والكلام والقراءة والكتابة وتلقي العلوم وتطوير الذات وامتلاك الثقافة وتمثل الروح القومية، وهذه المقدرة يمارسها الإنسان، ولا يمارسها الحاسوب، ولا يقوم بها، ولكنه يعين عليها.

ولذلك لابد من التمييز بين اللغة وممارسة اللغة، قد توجد اللغة في الرقم الطينية أو في ملايين الكتب المطبوعة أو في الحواسيب، أو قد توجد في أجهزة التسجيل المرئي أو المسموع، وهذه كلها أدوات معينة على ممارسة اللغة، وليست اللغة نفسها، اللغة هي في الدماغ، والدماغ هو الذي يحقق وجود اللغة، ويمكن توضيح الأمر على الشكل التالي: في القدر يطهى الطعام، والمعدة هي التي تهضمه، وفي الحاسوب تجمع اللغة، والدماغ هو الذي يمارسها.

إن الدماغ هو الذي يقوم بعملية تركيب الجملة، وتحميلها المعنى، وهو الذي يقوم بإدراك المعنى الحسي المباشر، والمعاني المجازية، والمعاني الإيحائية، وهو يصنع ما في الجملة من ترتيب نحوي، من تقديم أو تأخير، وما في الكلمة من اشتقاق، والدماغ هو الذي يدرك ذلك كله، والحاسوب لا يصنع شيئاً من هذا، إنما يقدم تسهيلات، تعين على سرعة التأليف، ولكنه لا يؤلف، هناك برامج لاكتشاف الأخطاء الطباعية والإملائية، وقد تكون هناك برامج لتصحيحها فوراً، وفق ما يزوده به الإنسان من برامج، ولكن لا يملك القدرة على التصحيح النحوي، ولا على تركيب الجملة، ومن الصعب تزويده ببرامج يصحح بها بناء الجملة، لأن بناءها متغير، ولا يقوم بناء الجملة دائماً على ورود الفعل أولاً ثم الفاعل ثم المفعول به ثم الحال ثم الجار والمجرور، إذ غالباً ما يحدث التغيير في مثل هذا الترتيب في معظم لغات العالم من أجل قيمة بلاغية، ولا يمكن أن يفرض الحاسوب ترتيباً ثابتاً، كما لا يمكن أن يقترح احتمالاً من بين احتمالات كثيرة، ففي جملة مثل: " قدم النادل صحناً إلى الزبون سريعاً في مطعم مزدحم " تقع احتمالات بناء كثيرة، منها:

١. قدم النادل صحناً إلى الزبون سريعاً في مطعم مزدحم.

٢. سريعاً قدم النادل صحناً إلى الزبون في مطعم مزدحم.
٣. في مطعم مزدحم قدم النادل صحناً إلى الزبون سريعاً.
٤. صحناً قدم النادل إلى الزبون سريعاً في مطعم مزدحم.
٥. إلى الزبون سريعاً قدم النادل صحناً في مطعم مزدحم.
٦. النادل قدم صحناً إلى الزبون سريعاً في مطعم مزدحم.
٧. قدم النادل في مطعم مزدحم صحناً إلى الزبون سريعاً.
٨. قدم النادل سريعاً صحناً إلى الزبون في مطعم مزدحم.
٩. قدم في مطعم مزدحم النادل صحناً إلى الزبون سريعاً.
١٠. قدم النادل إلى الزبون سريعاً صحناً في مطعم مزدحم.
١١. قدم النادل سريعاً إلى الزبون صحناً في مطعم مزدحم.
١٢. قدم النادل إلى الزبون سريعاً في مطعم مزدحم صحناً.

كما لا يمكن أن يميز الحاسوب بين : موجة البحر، وموجة الحر، وموجة البرد، وموجة الحمى، وموجة الإبداع، وموجة الغلاء، ولا يمكن أن يميز بين معاني كلمة ضرب في الجمل التالية:" ضرب الرجل الولد" و" ضرب الرجل مثلاً" و" ضرب في الأرض" و" ضرب عشاء دسماً"، كما لا يمكن أن يميز بين مستعمر ومستعمر، بفتح الميم أو كسرها.

إن لغة الإنسان تختلف كلياً عن الأشكال اللغوية التي تظهر بشكل ما عند بعض الحيوانات، وهذا الاختلاف لا يتمثل في عدد المفردات، أو في عدد البنى والصيغ، إنما يتمثل في النوعية، وفي الحرية الكبيرة لدى الإنسان في ممارسة اللغة، وفي اختراع ما هو جديد، يقول بيكرتون: "أما فيما يتعلق بكمية المعلومات أو درجة تعقيدها فلا مجال للمنافسة بين لغة الإنسان وما يسمى باللغات الأخرى...وليست القضية قضية تفوق عددي فحسب، فلغة الإنسان نظام مفتوح، أما نظم التواصل عند الحيوان فمغلقة، بمعنى أنه بغض النظر عن عدد الأشياء التي نستطيع أن نتكلم عنها، فإن باستطاعتنا دوماً إضافة ما هو جديد.....إن التفكير بأشياء جديدة سيل لا ينقطع عند بني البشر، إن قدرتنا المطلقة على إضافة ما نشاء إلى لائحة موضوعاتنا وعجز المخلوقات الأخرى في هذا المجال تدل على اختلاف في النوع وليس فقط في الكم". (بيكرتون، ص ٩)

ويؤكد بيكرتون أن اللغة ميزة إنسانية فيقول: " إن النحو وهو لب اللغة الإنسانية، وأكثر ما يميزها عن المحاولات اللغوية عند الحيوان، لا يمكن أن يكون مجرد اختراع أنتجته أفكار عباقرة أذكياء، لأن لهم أدمغة ضخمة، وإذا لم يكن النحو من المخترعات فهو إذن نشاط يقوم به الدماغ آلياً، وإذا كان الدماغ يقوم بهذا النشاط آلياً فلا بد له من أن يكون قد تطور بطرق محددة جعلت من الممكن إنتاج اللغة بشكل آلي، ولما كانت أدمغة أجيال لا حصر لها تعاقبت على

مر العصور تنتج لغة تتوافق مع ذات المبادئ البنيوية الثابتة، بصرف النظر عن اختلاف التفاصيل الدقيقة كالأصوات والمفردات، فإن بوسعنا الافتراض بأن آليات الدماغ التي تحدد اللغة تنتقل بالوراثة أيضاً" . (بيكرتون ص ٣٥)

ويتلخص رأيه في قوله: "إن النحو صفة من الصفات البيولوجية للنوع الإنساني، تماماً مثل قدرة الإنسان على الوقوف والمشي منتصب القامة، وميزة الإبهام في اليد البشرية لا أكثر ولا أقل" . (بيكرتون ص ٣٧)

إن الدماغ البشري هو الذي يقوم باختيار بناء الجملة وفق غرض معين، ولا يمكن أن يقوم الحاسوب بمثل هذا الاختيار، حتى لو توافرت له أنماط الأبنية واحتمالاتها في برنامج خاص، ولا بد في النهاية من أن يقوم العقل البشري بالاختيار، ومهما يكن يبقى المستقبل مفتوحاً على احتمالات غير محدودة، ومن الممكن تطوير برامج، نتفاءل بتحقيقها.

ولكن يبقى الحاسوب آلة معينة، ولا يمكن أن يحل محل الدماغ البشري، ولا يمكن أن يقوم بالعمليات التي يقوم بها الدماغ، إن الحاسوب يقدم تسهيلات ووسائل معينة، وهي خدمات كبيرة لا تقدر، كما يقوم بالتواصل والاتصال بين البشر في شتى بقاع الأرض، ويلغي الحواجز والحدود، ويوفر من المعلومات ما لا توفره عدة مكتبات في عدة بقاع من الأرض، وينقلها بسرعة هائلة.

ولكن هذا كله يقتضي ألا نبالغ في تقدير قيمة الحاسوب ودوره في تنمية المقدرة اللغوية، كما يجب ألا نقلل منها أيضاً، فهو مثله مثل أي آلة، يملك طاقة عالية، ولكن يبقى الدور الأول للإنسان الذي يستخدم هذه الآلة، والإنسان هنا هو الطفل.

ولعل مثالاً تقريبياً يؤكد دور الإنسان، إنه لا يكفي أن تعطي الطفل معجماً مثل لسان العرب ليملأ به رفاً كاملاً من رفوف مكتبته، وتطمئن عندئذ إلى أنه أتقن العربية، كذلك لا يكفي أن تمنح الطفل حاسوباً لتطمئن إلى أنه بوساطته سيتمكن من إتقان العربية. لا شك أن الحاسوب سيوفر للطفل إمكانات كبيرة لا يوفرها له الكتاب ولا المجلة ولا المدرسة ولا المعلم نفسه، ولكن هذه الإمكانات لا يمكن الاستفادة منها عفوياً أو تلقائياً.

ثانياً ـ الميزات التي يمنحها الحاسوب:

يستطيع الطفل التعامل مع الحاسوب قبل السنة الرابعة من العمر، ويمكن أن يعمل عليه وهو في الرابعة، ولو كان عمله في الألعاب، لأن الألعاب أياً كانت تنمي وعيه، وتقوي مداركه، وتزيد من حدة نشاطه، وهي على الأقل تسلّيه، والتسلية مطلب إنساني في الأعمار كافة، وهي لا تسليه فحسب، بل تربطه بالحاسوب، وتعلمه سرعة التعامل معه، وخير وسيلة للتعلم هي اللعب، وسرعان

مـا ينتقل بعد ذلك إلـى الاستفادة المباشـرة، ويمكنـه أن يتصـل بمعلميـه بوسـاطة الشابكة، وأن يرسل إليهم واجباته وأن يسألهم.

يـوفر الحاسـوب الحريـة، وعـدم الخضـوع لنظـام المدرسـة وقوانينهـا ومـا تضيعه من وقت، إن الحاسوب سيساعد الطفل على اختيار الموضوع الذي يريد في الوقت الذي يريد في المكان الذي يريد، ولا سيما عندما يتعامل مع الحاسوب المحمول، فهو غير مقيد بزمان أو بمكان، وسيوفر عليه الوقت والجهد، ولن يخضع الطفل مع الحاسوب لسيطرة المعلم ومزاجه وقسوته وأخطائه، سيكون الطفل هو سيد نفسه، وصاحب القرار، والمتحمل للمسؤولية، وسيفتح الحاسوب أمام الطفل آفاق المعرفة، بما يوفر له من معلومات، ولن يبقى مقيداً بمناهج قديمة لا تتغير إلا بعد أن يتجاوزها الزمن بسنين عدداً، يفرضها الكبار على الصغار، ويفرضها رجال ينتمون إلى جيل غير الجيل الذي يتعاملون معه، إن الطفل سيختار معلوماته، وسيملك من المعلومات أكثر مما يملك معلمه، سيكون الأطفال أكثر قدرة على التعامل مع الحاسوب من جيل المعلمين الذين جمدوا عند مستوى من المعرفة وعند نمط من الأداء، لم يطوروا أنفسهم، وهم يرفضون الحاسوب، ويتمسكون بالقديم، لعدم امتلاكهم المرونة أو القدرة على التجديد.

إن الجيل الجديد من الأطفال يميل إلى كسر الانضباط، ورفض الالتزام بالأنظمة والقوانين، والخروج عن كل ما هو مقرر ومفروض، ويجد العنت كل العنت في التعلم، بسبب هذا المزاج، وبسبب الأنظمة والقوانين المدرسية التي لم تتطور مع تطور الطفل في العالم، وفي دخول الحاسوب في العملية التعليمية في المدرسة وفي البيت ما سيمنح الطفل قدراً كبيراً من الحرية، ويحقق له قدراً كبيراً مما يتفق ومزاجه الجديد، ومن الممكن أن يحقق الحاسوب في المدرسة مناخاً من الحرية يقلل من رتابة التدريس وأساليبه الصعبة، وبإمكان المعلم أن يتلقى واجبات الطلبة على الحاسوب وأن يصححها لهم، وأن يتصل بهم عبر الشابكة، وأن يدخل معهم في حوار مباشر في منزلهم، وأن يقترب من مزاجهم، كي تتخلص العملية التعليمية من عوائق كثيرة.

يقول الدكتور المعتوق:" لقد أجريت بعض الدراسات على التلفزيون كوسيلة تعليمية فوجد أن التعليم عن طريقه يقلل من تأخر الطلاب وغياباتهم ويسيطر على ما لدى بعض المتعلمين من سلوك سيئ، كما ثبت أن الصفوف التي استعان المدرسون فيها بالتدريس بالتلفزيون أفضل من تلك التي درست بالطرق المعتادة فقط. وبذلك فإن التلفزيون التعليمي يمكن أن يكون في مقدمة الوسائل التي تشترك في تجسيد اللغة وتقريرها وإيصالها أو نقلها عن طريق الحواس المتعددة، بشرط أن تتوافر المادة التعليمية النافعة والتخطيط السليم في العرض والتوجيه السديد في الاستخدام، لئلا تتحول هذه الأداة إلى وسيلة ترفيه بحتة

وأداة لقتل الوقت". (المعتوق، ص ١٩٠) وإذا كان التلفزيون يحقق ما يحقق، فإن الحاسوب سيحقق ما هو أكثر.

إن الأطفال أقدر من الكبار على التعامل مع الحاسوب وأسرع في التأقلم معه، وأكثر قدرة على الإفادة من تقاناته المتعددة، وهم أقدر على صنع برامج تخدم مناهجهم، وكما يقول جيتس:"وعادة ما توتر الكومبيوترات أعصاب أي شخص إلى أن يفهمها، والأطفال هم الاستثناء الرئيسي هنا". (جيتس، ص٤٠٤)

يندفع الطفل إلى التعامل مع الحاسوب بحماسة وشوق ورغبة أكثر مما يندفع للتعامل مع الكتاب لأنه مع الحاسوب يشعر أنه يتعامل مع تقانة علمية جديدة، ويدرك أنه يتعامل مع أداة حضارية، وهذا مما يزيد من ثقة الطفل بنفسه، ويشعر الطفل وهو يتعامل مع الحاسوب بالبهجة والمتعة لما فيه من حداثة وأساليب مسلية تجمع بين الجد واللعب، والحاسوب ينفي عنه الملل والكسل، ويساعده على التركيز، ويقلل من انشغاله بأمور أخرى، فالطفل يصبر على العمل في الحاسوب ساعات أكثر مما يصبر على العمل في قاعة الصف أو في التعلم مع الكتاب، ويجعله في تنافس مستمر مع عالم واسع من المعلومات، وينمي الحاسوب شخصية الطفل ويجعله أقدر على الحوار والمحاجة والتفاهم والتواصل مع الآخرين وتأكيد الذات، ويمنحه الثقة بنفسه، كما يزرع في نفسه الثقة بلغته العربية، ويؤكد له أن لغته قادرة على استيعاب معطيات الحضارة، والتعامل معها.

يطور الطفل بوساطة الحاسوب مهارته في القراءة والكتابة والفهم والاستيعاب والرسم وإعداد البرامج، ويساعده على سماع العربية الفصيحة، وهي تؤدى الأداء السليم والجميل من خلال برامج تلاوة القرآن الكريم وإلقاء الشعر، ويساعد الحاسوب الطفل على حل كثير من مشكلات النطق والسلوك، كالتلعثم والتردد والارتباك، كما يساعده على النطق الصحيح للأحرف اللثوية والحروف القمرية، ولا سيما الجيم، والحروف الشمسية، وقراءة الأعداد مكتوبة بالكلمات، وتطبيق كثير من القواعد، ويعلمه فن الإلقاء والخطابة والمحادثة وإجراء المقابلات وفن الحوار.

ويوفر الحاسوب للطفل قراءة سهلة واضحة ممتعة، إذ بإمكانه أن يتحكم بحجم النص والحرف ونوعه ولونه ودرجة الإضاءة، وأن يعلق على النص وأن يضيف إليه ويعدل فيه وأن يرسله إلى صديق وأن يطبعه، مما لا توفره صفحات الكتاب. ويعلم الحاسوب الطفل سرعة القراءة، وسرعة التفكير، إذ عليه أن يكتب بالسرعة نفسها التي يفكر فيها، وسرعة الكتابة على الحاسوب هي أكبر من سرعة الكتابة بالقلم على الورق، والنتيجة هي سرعة التأليف، كما أن سرعة الكتابة هي ناتجة عن سرعة القراءة التي يوفرها الحاسوب. وتساعد برامج

الحاسوب على إنتاج أكبر وأسرع، إذ يريح الحاسوب من مشكلة المسودة والمبيضة والتنقيح وإعادة الكتابة، إذ يوفر الحاسوب إمكان القص واللصق والتقديم والتأخير والحذف والإدراج، وهي تقانات عالية السرعة توفر الوقت والجهد، وتنمي القدرة على الكتابة والقراءة، بل تجعل القراءة والكتابة ممتعتين.

ويزود الحاسوب الطفل بمفردات جديدة في عالم الحاسوب، من مثل: إدراج، إدخال، فتح، إغلاق، عرض، إعداد، لوحة المفاتيح، القرص المرن، القرص الصلب، نسخ، قص، لصق، حذف، ويطلق مقدرته على اشتقاق مفردات تناسب الحاسوب أو ترجمة مفرداته إلى العربية، كأن يشتق حوسب ومحوسب من حاسوب، وهو يمتلك مصطلحات جديدة، من مثل: تخزين، وشاشة، وإضاءة، وقص ولصق وإدخال وبرمجة وإعداد وتصال، كما يطلق مقدرته اللغوية على تعريب بعض المصطلحات، فقد شاعت بين الأطفال مصطلحات من مثل: (سيّف) حفظ و(كنصل) أغلق وأغى و(بلتس) أرسل للحفظ و(ديليت) حذف و(فرمت) أعاد التركيب و(ديسك) قرص و(سيدي) قرص صلب و(هارد) مُخزِّن و(لابتوب)محمول، وإذا كان الطفل يجد نفسه مضطراً لا شعورياً في مرحلة إلى التعريب، فإنه سيجد نفسه في مرحلة تالية قد امتلك المقدرة على الترجمة.

ويبدو العمل على الحاسوب ممتعاً ومسلياً وكأنه لعب، لما يمكن أن يصاحب العمل عليه من سماع الموسيقا أو الأغنيات ولما يكون فيه من ألوان ورسوم وتقانات التسلية، مما يجعل العمل ممتعاً، بخلاف المدرسة التي تفرض النظام القاسي الجاف الخشن. إن العمل على الحاسوب هو بحد ذاته سلوك، يخلق لدى الطفل عادة سلوكية مختلفة كلياً عن عاداته السلوكية الأخرى، ولاسيما عندما يعمل على الحاسوب المحمول، إذ يدرك أنه يفعل شيئاً مختلفاً عن القراءة في الكتاب وراء الطاولة، وكل سلوك ينتج نمطاً لغوياً مختلقاً عن السلوك الآخر.

سيضع الحاسوب العالم كله بين يدي الطفل، ويفتح أمامه أبواباً ونوافذ لا يمكن التنبؤ بها، إذ يمكنه أن يتصل بأصدقاء في العالم كله، وأن يقيم معهم علاقات منوعة، وأن يكتب لهم، وأن يتكلم معهم، وأن يراهم وهو وراء الحاسوب في منزله، ويعرف من خلالهم شعوب العالم بما لديها من عادات وتقاليد، فتنمو مداركه وتتسع آفاق معرفته، فتنمو لغته وتتطور، وتغتني.

سيربط الحاسوب الطفل بمدرسة افتراضية، لا تقيده بزمان ولا بمكان، تمنحه ما لا يخطر على بال من أشكال العمل والمعرفة والثقافة، إن العمل على الحاسوب سيولّد ما دعته ديل سبندر:" التشابك مع الشابكة"، وهو عنوان كتاب لها، وفي أحد فصوله تقول: " مدرسة المستقبل هي نموذج للمدرسة الإلكترونية التي لن يحتاج معها الطلاب إلى الحضور وسماع الدروس التي يلقيها المعلم، وذلك لأن الدروس تلقى من خلال الشبكة، وبذلك تكون الشبكة بمنزلة وسيلة النقل

بدلاً من المعلم كما أن الطالب الذي يستخدم الشبكة يكون أكثر معرفة من المعلم في بعض الأحيان، وذلك تبعاً لاهتمام هذا الطالب النموذج المثقل بالمعلومات، ومن خلال الشبكة يمكن الطالب توجيه أسئلة والحصول على معلومات وتغذية راجعة فورية لا على الصعيد المحلي فحسب، بل على المستوى العالمي، بحيث يتم التفاعل على مستوى القرية العالمية". (سبندر ص ٤٧ـ ٤٨)

إن الميزات السابقة التي يمنحها الحاسوب للطفل ليست مجرد ميزات منفردة أو متراكمة أو متتابعة أو متوازية، وإنما هي ميزات متفاعلة، بين بعضها وبعضها الآخر علاقات، وهي تولد ميزات أخرى غير متوقعة، تغير في ذهنية الطفل وآلية التعامل معه، إن الحاسوب سيغير مستقبلاً كل شيء، نمط الدروس، وطرق الامتحان، وأساليب التعلم والتعليم.

إن الآفاق المستقبلية للحاسوب وقدرته على تنمية اللغة عند الطفل غير محدودة، ولاسيما خدمته الكبيرة للعربية الفصيحة، وهنا تكمن أهمية الحاسوب، إذ ستكون برامجه متطورة فنياً، ومشوقة، ومعدة بالعربية الفصيحة، وهي بذلك تساعد على تقليص الفوارق بين الفصيحة والعامية، وتساعد على نشر التعليم، وتعميق الثقافة، وتأكيد ثقافة الكلمة بدلاً من ثقافة الصورة، وتنمية الشعور القومي، وتحقيق التقارب الثقافي والمعرفي والوجداني بين الأشقاء العرب في الوطن العربي.

إن إمكانات الحاسوب ووسائله المتاحة حتى الآن ليست بالقليلة، ويمكنها أن تحقق تنمية لغوية واسعة ومعمقة، إذا ما أخذ بها وطبقت في المنازل ورياض الأطفال والمدارس.

ثالثاً ـ طبيعة العلاقة مع الحاسوب:

من المعروف بداهة أن الإنسان يتعلم الكلام أولاً، ثم يتعلم الكتابة والقراءة، والمرء لا يكاد يعرف كيف تعلم الكلام، ولا يكاد يذكر، وهو يتعلمه ببساطة وعفوية، في المنزل بين أبويه، ومع إخوته، ثم في المجتمع، ولكنه يعاني بعد ذلك من تعلم الكتابة، ويكاد الكلام يكون عفوياً، ونتاج نمو عضوي، كأنه حاجة غريزية، كالحاجة إلى الطعام، في حين يبدو تعلم الكتابة والقراءة فعلاً إرادياً واعياً، وهو فعل منظم، وفيه قدر كبير من الصعوبة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى التاريخ والشعوب، فقد تكلم الإنسان أولاً، ثم اخترع بعد ذلك الكتابة بأشكال وطرق مختلفة، ثم اخترع الأبجدية.

" فمن ناحية النشوء النوعي تعلم الإنسان الكلام قبل الكتابة، ومن ناحية تطور الفرد كفرد تعلم الطفل أن يتكلم قبل أن يكتب، ولهذا السبب ينظر إلى اللغة المكتوبة على أنها لغة منطوقة دونت في نظام مكتوب مصطلح ومتعارف عليه ويعبر عنها بطريقة خاصة في الكتابة". (غنيم ص ٩٣)

ولغة الكلام هي أدنى من لغة الكتابة، لأن لغة الكلام ارتجالية عفوية سريعة، وهي نفعية، غايتها التواصل، ولغة الكتابة هي لغة مختلفة، تحمل معلومات منظمة، مرتبة، دقيقة، أو تعبر عن انفعالات ومشاعر ناضجة، وليست عابرة أو مؤقتة، والفرق بينهما غالباً غير قليل، وتسمى لغة الكلام اللهجة العامية، كما تسمى لغة الكتابة اللغة الفصيحة، والفارق بينهما يزداد في حال انتشار الأمية والجهل والتخلف، ويقل الفرق بينهما في حال انتشار العلم وتحقق وسائل التواصل والاتصال.

لقد كان الكلام في العصور القديمة كافياً وحده، وكانت الحاجة إلى الكتابة قليلة، لأن العلوم كانت بسيطة وقليلة، وكان الكلام وحده قادراً على حمل العلوم والثقافات، وكان التعويل على الكتابة قليلاً، وهي مرحلة الشفاهية، ولكن سرعان ما قويت الحاجة إلى الكتابة واشتدت، مع تراكم الثقافات ونمو العلوم والمعارف، على نحو ما كان في العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي، فكان الشعر يتناقل شفاهاً، كما كان القرآن الكريم يحفظ في الصدور، وكانت الخطب هي الوسيلة الثقافية المعبرة عن المجتمع، وكان الاعتماد على التدوين قليلاً، ولكن سرعان ما دون القرآن الكريم، وكتبت منه النسخ، ووزعت على الأمصار، وظهرت الحاجة إلى تدوين الأشعار واللغة والأخبار، ثم بدأت المصنفات بالظهور.

والمقصود بالتنمية تطوير المقدرة اللغوية، والانتقال بها باستمرار من مستوى إلى مستوى آخر أفضل من سابقه، وأجود، والمقصود بالمقدرة اللغوية المهارات اللغوية التي يمارسها الطفل من كلام وتواصل مع الناس وقراءة وفهم واستيعاب وكتابة، وتلقٍّ للعلوم والمعارف، وقدرة على التعبير عن الذات، وتحقيق الوجود والتواصل الفعال مع البيئة المحيطة، وتحقيق الهوية القومية والثقافية.

ولذلك فإن تنمية المقدرة اللغوية بوساطة الحاسوب لا بد أن تتم بأشكال مختلفة: من قراءة واستماع وكتابة وفهم ومعالجة وتطوير برامج، إن المقدرة اللغوية ليست مجرد تمكن من اللغة، وإتقان نحوها وأساليبها، ومعرفة أسرارها والغوص فيها، إنما هي هذا كله، مقروناً بممارستها في الواقع، وفي ميادين العلم والمعرفة، لتحقيق الذات، والحفاظ على الهوية وتحقيق الانتماء إلى الثقافة.

ويميل بعض المربين إلى المبالغة في الفصاحة، وفرض أنماط معينة من بناء الجملة، وأنواع من الألفاظ الفصيحة البعيدة عن الاستعمال، كما يميل بعضهم إلى الإسهاب والتكرار والترادف والتطويل، وهم يقصدون إلى تعليم الطفل اللغة، وهي ظواهر وأساليب لغوية لم تعرفها العربية في عصور الازدهار الحضاري، فقد لحقت بها في عصور الجمود، حيث غلبت العناية بالشكل، ولا تتفق مع السمة

المميزة للعربية وهي الإيجاز، ولا تساعد على تعليم اللغة، كما لا تتفق مع معطيات عصر العلم، وسوف يساعد الحاسوب على كسر هذه الظاهرة وتجاوزها، وسوف يعلم الحاسوب الطفل الإيجاز في اللغة والاقتصاد.

ولقد ظهرت مؤلفات لغوية تقوم على جمع الألفاظ وتبويبها وفق المعاني والدلالات، بغية تعليم الطفل اللغة، ومثل هذه المؤلفات لا تعلم اللغة، ولا تنمّي المقدرة اللغوية لدى الطفل، لأن المفردات وحدها خارج السياق لا تملك القوة على التأثير ولا تساعد على الحفظ، ولا تمكن الطفل من استعمالها، إن كلمة "طلّ" مفردة لا يمكن أن يحفظها الطفل، ولو شُرِح معناها، ولكن الطفل سيدرك معناها وسيحفظها فور قراءته مثل هذه الجملة: " تسقط حبات الطل عن أوراق الأشجار في الصباح الباكر قبل شروق الشمس متلألئة مثل دموع الفرح".

وظهرت مؤلفات لغوية أخرى تكشف عن الأخطاء الشائعة وتصوبها، ولا يمكن إنكار قيمتها، ولكنها تفيد المختص في المقام الأول، ولا يمكن أن تنمي المقدرة اللغوية، ولاسيما عند الطفل، لأن المقدرة اللغوية لا تنمو إلا بالتواصل مع الإجراءات اللغوية الصحيحة والسليمة: قراءةً وكتابةً ونطقاً واستماعاً، إن معرفة الخطأ وحده لا يكفي لكتابة سليمة، بل لابد من التمرس بما هو صحيح وسليم وجيد، فهو أكثر تأثيراً، وبعض هذه المؤلفات يبالغ في التخطيء، فأحياناً تفرض هذه المؤلفات استخدام الكلمة بمعناها المعجمي، وتنسى المجازي، وأحياناً تفرض أسلوباً محدداً في بناء الجملة، مع أن بناء الجملة ليس قالباً ثابتاً، ولا بد فيه من تقديم وتأخير وحذف، وفي أحايين كثيرة تغيب عنها أوجه هي من لغات العرب ولهجاتهم.

ولا بد من تأكيد قيمة ذات أهمية كبيرة، وهي النسق المعرفي، في مقابل المفردة المعزولة عن السياق، سواء أكانت هذه المفردة كلمة أو معلومة، إنه ليس من المفيد في شيء أن يزود الطفل في جلسة واحدة أو في كتيب واحد بمعلومات جزئية مفردة عن محيط الأرض وعن الروائي تولستوي وعن عدد دقات القلب وعن أعلى قمة في العالم وعن بيتهوفن وعن استقلال أمريكا، فهي معلومات جزئية مفردة، لا تشكل نسقاً معرفياً متكاملاً، ومن الأفضل للطفل أن يتلقى في جلسة واحدة أو في كتيب واحد معلومات وافية عن بيتهوفن والموسيقا السيمفونية، لأنها تشكل نسقاً معرفياً كاملاً، لا تُنسى مفرداته. وتبرز هذه المشكلة أوضح ما تبرز في وضع المصطلحات، إذ من الصعب على من يعمل في الطب أن يضع مصطلحاً أو يترجم مصطلحاً في مجال علم النفس، ولكن من السهل على العامل في مجال الطب أن يضع مصطلحاً في عالم الطب أو أن يترجم مثل ذلك المصطلح، لأنه يتعامل مع نسق معرفي كامل هو الطب.

ولا بد من تأكيد قيمة أخرى وهي التراكم والتعليم المستمر والنمو مع الزمن، إذ لا يمكن أن يغدو الطفل بين عشية وضحاها ضليعاً في اللغة، ولو استخدمت في تعليمه كل الوسائل التعليمية الحديثة، فالمعرفة لا تتحقق دفعة واحدة، ولا تتحقق مرة واحدة، ولا بد من التكرار والاستمرار والتراكم والنمو.

يقول الدكتور المعتوق: " إن ممارسة استخدام المحصول اللغوي المختزن في الذاكرة لا تزيد من حيوية وإنعاش هذا المحصول وحضوره الدائم في الذهن ومن فاعليته في التعبير فحسب، وإنما تعمل أيضاً على تنميته والإسراع في إغنائه، فمن الثابت في علم النفس أن الخبرات أو المعلومات القديمة تساعد على خفض الفترة الزمنية اللازمة لتعلم مهارات جديدة أو تلقي معلومات جديدة، وهذا المبدأ يتمثل بصورة أكثر وضوحاً في تعلم اللغة وتلقن مفرداتها وصيغها، فالمفردات المدركة شكلاً ومعنى والمختزنة في ذاكرة الفرد تعينه على تصور وإدراك مفردات أخرى مرتبطة بها، أو مجاورة لها في كلام يقرؤه أو يسمعه، إذ إنها تخلق سياقاً معيناً يعين على إدراك واستيعاب ما لم يوجد في الذاكرة من قبل، وبالتالي تدخل العناصر الجديدة إلى الذاكرة بسهولة نتيجة لارتباطها بالعناصر القديمة، وقد تطرق فندريس إلى هذه الفكرة بقوله: عندما نسمع جملة أو نقرؤها نرى الكلمات التي تشتمل عليها يفسر بعضها بعضاً، فإذا كانت واحدة منها غير مألوفة لنا ـ والواقع أن هناك دائماً فترة في حياتنا نسمع فيها كلمة لأول مرة ـ حاولنا بطبيعة الحال تفسيرها معتمدين على سياق النص، وهذه هي الخطة التي يتبعها التلاميذ عندما يحاولون ترجمة نص أجنبي". (المعتوق، ص ٢٧٧)

ويؤكد الفكرة ثانية بقوله: "ويمكن القول إنه كلما كانت العناصر القديمة أوفر كان الترابط أكثر ودخول العناصر الجديدة أيسر، وكلما قلت العناصر القديمة قلت نسبة الترابط، وصعب التصوير، وتعثر رسوخ العناصر الجديدة في الذاكرة، لأن توافر العناصر القديمة يؤدي في الغالب إلى زيادة الفرص لإدراك معاني الكلمات الغريبة في سياقها الجديد" . (المعتوق، ص ٢٧٨)

رابعاً ـ الطفل وتنمية اللغة بالحاسوب:

إن الحاسوب لا يعمل وحده، ولا بد من طفل يتعامل معه، ولا بد لهذا الطفل من الرغبة والإرادة والصبر والتصميم، ومساعدة المعلم في المدرسة والأهل في البيت، ولا بد له من حسن التوجيه، ودوام التشجيع، ولا بد له أخيراً من أن يدرك واعياً أنه حقق شيئاً، واستفاد، وأن مقدرته على الكلام والحوار والقراءة والكتابة قد تطورت، وأن معلوماته قد نمت، حتى يشعر بجدوى التعلم، ويستمر فيه.

إن الحاسوب يقوي شخصية الطفل، ويساعده على تحقيق التعليم الذاتي، ويمكن أن يعد الحاسوب أفضل أداة لتحقيق هذا النوع من التعليم، " ويقصد

بالتعليم الذاتي تمكين المتعلم من الاعتماد على نفسه بصورة دائمة ومستمرة في اكتساب المعارف والمهارات، ولا بد من توافر أربعة مكونات أساسية فيه، هي : وجود الدافع أو الحافز، وإعطاء المثيرات والمعلومات المميزة، وقيام المتعلم بالاستجابة والنشاط في أثناء عملية التعليم، واطلاع المتعلم فوراً على نتيجة عمله، والتعليم المبرمج أحد أساليب التعليم الذاتي". (السيد ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧) .

ولا بد أن يقتنع الطفل بأهمية تنمية مقدرته اللغوية، والفائدة منها، حتى يقبل عليها، لأن الإنسان عامة والطفل خاصة لا يهتم بأي شيء إلا إذا أدرك أهميته، واقتنع بوجود فائدة من ورائه، وعليه أن يدرك أن تعلم اللغة ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة ليطور علاقاته مع العالم، ويحسن تلقي العلوم، وما وسيلته إلى تلقي الرياضيات والكيمياء والعلوم إلا اللغة، وليحسن التفكير، وليجيد التعبير، وليقتنع بأن إتقان اللغة ضروري لتلقي العلوم، وامتلاك الثقافة، وتحقيق الانتماء إلى الأمة والعصر والحضارة، فإذا ما أدرك ذلك كله أقبل على تعلم اللغة وإتقانها.

بل إن على الطفل أن يدرك أنه عندما يتقن اللغة إنما يحقق وجدوده بصفته إنساناً، يتميز عن سائر الكائنات باللغة التي يتكلمها، وأنه من خلال اللغة يتعرف على العالم، فاللغة تعرفه على المحسوسات في الكون، من جماد ونبات وحيوان، وتعرفه على المعاني من حب وكره وغضب ورضا وحزن وفرح، حتى قبل أن يعيش مثل هذه المشاعر، وهو حين يعيشها يعبر عنها باللغة، فيعي ذاته، ويعيها، بل إن اللغة تعرفه على الدين وما وراء الطبيعة والمغيبات، فاللغة تعلمه معنى الله والشيطان، وتعرفه على ما لا يراه، من كائنات أسطورية، فاللغة معرفة وحسّ ووجدان وخيال، بل هي تاريخ وجغرافية وفلسفة، هي المخزون الثقافي للبشرية.

يقول بيكرتون:" اللغة صورة منظمة عن العالم ومرتبة بحيث يمكننا تحديد عناصر المعلومات فيها بسرعة ويسر، فالصورة التي تجزئ مفهومنا عن الواقع إلى أجزاء مسماة وقابلة للاستفادة الفورية هي التي تجعلنا قادرين على الحديث عن العالم وعن كل ما فيه تقريباً، عن كل ما ندركه بالحواس على الأقل، وحتى عن عدد كبير مما لا تدركه الحواس، مثل الملائكة والنيوترونات والقنطور. لكن ما يسمى "لغة" (عند الحيوان) لا يمكن أن يمثل العالم ولا بأي شكل من الأشكال، فلا لغة الإيماء ولا صيحات القرود أو حركاتها يمكنها أن تمثل العالم، إنها تمثل شعور الإنسان أو القرود في تلك اللحظة، وهي بذلك تعبر عن رغباته ونواياه لا أكثر ولا أقل، فلا شيء غير اللغة يمثل العالم بأسره، ذلك العالم الذي يحس به المخلوق ويتفاعل معه". (بيكرتون، ص ١٣)

إن الأهداف من تعلم اللغة عديدة، ولا بد من توضيح تلك الأهداف للطفل، كي يقبل على تعلم اللغة، "إن تحديد الأهداف يساعد على وضوح الغاية ومعرفة

الاتجاه، إذ إن وضوح الغاية شرط أساسي لبلوغها، كما أن هذا التحديد يساعد على اختيار الطريقة المناسبة لتحقيق الهدف، إذ لم تعد هناك طريقة واحدة تصح لتحقيق الأهداف جميعها، وتناسب المستويات كلها والظروف والإمكانات جميعها، فإذا ما كان الهدف واضحاً ومحدداً اختيرت الطريقة المناسبة، إذ عندما يكون الهدف واضحاً يحسن الاختيار، وهذا ما ينطبق على الوسائل والأدوات أيضاً". (السيد ص ٢٨٥)

وعلى الطفل أن يدرك أنه إذا تكلم العربية فهذا لا يعني أنه يعرف العربية ويتقنها، فهو يعرف الكلام باللهجة العامية، وهي دون العربية الفصيحة وإن كانت امتداداً لها، وأنه لا يكفي أن يتكلم العربية ليحسب أنه يتقن العربية، إذ لا بد من تعلم العربية الفصيحة ودرسها، وهي غير العامية التي يتكلمها، ولا بد من إتقانها والتمكن منها، إن بعض الناس يقولون: "نحن عرب نتكلم بالسليقة"، ولكن عليهم أن يدركوا أن زمن السليقة قد انتهى، فالكلام بالسليقة كان في العصر الجاهلي وفي العصر الإسلامي، وفي حدود الجزيرة العربية، ولكن ما إن خرج العرب إلى الأمصار، ودخل العصر الأموي، واختلط العرب بالأعاجم، ودخل في الإسلام شعوب كثيرة، حتى انتهى ما يسمى السليقة، وكان الشاعر يضطر للخروج إلى البادية ومخالطة العرب الأقحاح حتى يتلقى عنهم العربية، أي حتى يتعلم الفصاحة والبلاغة، وكان كثير من الشعراء والأدباء ينتجعون البادية ليخالطوا الأعراب، ويتلقوا عنهم العربية.

وقد يقال إن الطفل سوف يسيء استخدام الحاسوب، وسيستخدمه في اللعب ببرامج التسلية، وهي كثيرة، وسوف تستنفد وقته وجهده، وتشغل تفكيره، ولكن من حق الطفل أن يلعب، وألعاب الحاسوب نفسها تنمي مقدرته اللغوية، واللعب خير وسيلة للتعليم، كما أن الأطفال والكبار كانوا على مر العصور يلعبون وما زالوا، ولا بد من وقت للعب سواء في حضور الحاسوب أو في غيابه، وهل من طفل لا يلعب؟ بل إن اللعب ظاهرة صحية.

ومع استمرار الطفل في التعامل مع الحاسوب سيختار ولو بعد حين ما ينفعه ويترك ما لا ينفعه، كما يقول جيتس: " كلما ازدادت خبرة الناس في التعامل مع الكومبيوترات الشخصية تعمق فهمهم لما يمكن أن يفعلوه وما لا يستطيعون عمله، وعندئذ تصبح الكومبيوترات الشخصية أدوات لا أشياء منطوية على مخاطر، فالكومبيوتر شأنه في ذلك شأن الجرار الزراعي أو ماكينة الخياطة ليس سوى آلة يمكننا استخدامها لمساعدتنا لأداء مهام معينة بكفاءة أكبر"(جيتس ص ٤٠٤).

إن للآلة سحرها الخاص، وهي تجذب الإنسان إليها، وللجديد أيضاً سحره الخاص، ولذلك يتعلق المتعلم أياً كان عمره بما هو آلي وبما هو جديد، ومن

الطبيعي أن ينجذب الطفل إلى الحاسوب، فالطفل ينجذب إلى الكتاب ذي الغلاف الجميل الجديد، وينجذب إلى اللوح الجديد النظيف، وإلى القلم المختلف المتميز، ومن الطبيعي جداً أن ينجذب إلى الحاسوب، وأن ينمي لغته بالتعامل معه.

إن الحاسوب ـ كما يرى جيتس ـ ينطوي " على إمكانية أن يصبح أداة لتعلية الذكاء الإنساني على مدى المستقبل المنظور، غير أن الأدوات المعلوماتية لن تصبح الاتجاه السائد في حقل نشر المعلومات حتى يصبح كل إنسان تقريباً مستخدماً للكومبيوتر وسيكون الأمر رائعاً دون ريب عندما تتوافر لدى كل فرد غني أو فقير حضري أو ريفي عجوز أو شاب إمكانية التعامل مع الكومبيوتر". (جيتس، ص ٤٠٥) وليس حلم جيتس صعب المنال، فكما أن كل فرد يحمل هاتفه النقال الخاص به، كذلك سيكون لكل فرد حاسوبه المحمول الخاص به.

ولكن من المؤسف أن أكثر الناس يشترون لأولادهم من الألعاب والهدايا ما تبلغ قيمته ثمن الحاسوب، وهم يشترون الهواتف النقالة، ويبدلونها جرياً وراء التطورات الحديثة فيه، كما يشترون أجهزة الاستقبال المرئي، وينفقون عليها أَضعاف ثمن الحاسوب، والسيدة في المنزل تزود مطبخها بأجهزة وأدوات يفوق ثمنها أضعاف ثمن الحاسوب، ولذلك فإن الفقر ليس مشكلة، إنما الجهل وغياب الوعي هما المشكلة.

خامساً ـ الحاسوب وخصوصية اللغة العربية:

في العربية خصوصيات تميزها، منها الفرق بين الفصيحة والعامية، أو اللغة المحكية واللغة المكتوبة، وهو فرق قائم في معظم لغات العالم، ولكنه في العربية أوضح، ويمكن أن يعد من خصوصياتها لسبب أساسي يتمثل في أن الفصيحة تحرك أواخر الكلمات، والعامية تلجأ في معظم الأحيان إلى تسكينها، وهذا السبب غير موجود في معظم اللغات، لأنها تلجأ دائماً إلى التسكين، ولا يتغير المعنى، بخلاف العربية، وثمة أسباب أخرى للفرق بين العامية والفصيحة في اللغة العربية، منها عهود من التخلف والفقر والجهل، وانتشار الأمية، وامتداد رقعة الوطن العربي على مناطق جغرافية منوعة، خضعت لظروف تاريخية واقتصادية مختلفة، ولكن الفرق بين العامية والفصيحة بدأ يقل بسبب انتشار التعليم وتطور وسائل الاتصال، وسيكون للحاسوب دور كبير في تقليص المسافة بين العامية والفصيحة، ولكن ستبقى هناك لهجات عامية لا بد منها، وما هي ببعيدة عن الفصيحة، وإن هي إلا أداء يومي سريع في النطق من غير إعراب للعربية الفصيحة.

إن الآفاق المستقبلية للحاسوب وقدرته على تنمية اللغة عند الطفل غير محدودة، ولاسيما خدمته الكبيرة للعربية الفصيحة، وهنا تكمن أهمية الحاسوب، إذ ستكون برامجه متطورة فنياً، ومشوقة، ومعدة بالعربية الفصيحة، وهي بذلك

تساعد على تقليص الفوارق بين الفصيحة والعاميات، وتساعد على نشر التعليم، وتعميق الثقافة، وتأكيد ثقافة الكلمة بدلاً من ثقافة الصورة، وتنمية الشعور القومي، وتحقيق التقارب الثقافي والمعرفي والوجداني بين الأشقاء العرب في الوطن العربي.

ومن أهم خصوصيات العربية القرآن الكريم، فهو المصدر الأول للعربية، وهو كلام الله عز وجل، نزل به جبريل الأمين على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أودع الله تعالى فيه آياته المعجزات، فأكسب العربية الفصاحة والبلاغة والبيان وقوة التعبير وشدة التأثير، ومنحها البقاء والخلود، وحفظ أصواتها، فهو إلى اليوم ما يزال يقرأ بأصواته ومداته وسكناته كما سمعه الصحابة عن رسول الله، لأنه منقول بالتواتر، ولولا القرآن الكريم لأصبحت العربية لغات بدداً، كما منح الناطقين بها علوماً ومعارف، ولولاه لظلوا قبائل تقتتل، إذ لأجل القرآن الكريم نشأت علوم اللغة والنحو والبلاغة والصرف والفقه والتفسير، ولأجله وُضعت معجمات اللغة والشروح، ولأجله تُرجمت كتب الفلسفة والمنطق ونشأ علم الكلام، وإلى اليوم ليس بإمكان المرء أن يكتسب الفصاحة إلا إذا قرأ القرآن الكريم، وتعلم التجويد، ودرس مخارج الحروف، ولا يمتلك البلاغة والبيان إلا إذا درس القرآن الكريم، وعرف أسرار البلاغة فيه، فهو الحافظ لهذه اللغة، وهو الحامل لها، وبه كرمها الله، وبه جعلها مقدسة، ولا يمكن نزع القدسية عنها، ولو جهد المغرضون، لأنها هبة من الله، ولذلك فإن خير ما يمكن أن ينمي المقدرة اللغوية عند الطفل هو القرآن الكريم، بسماعه وتلاوته وتجويده وفهمه وتدبر معانيه وحفظه، وفي الحاسوب خير معين على سماع القرآن يتلى بنبرات وإيقاعات كثيرة، ومشاهدة آياته تكتب بحروف مضبوطة ملونة بما يساعد على المتابعة والتلاوة والفهم، وثمة برامج تساعد على التلاوة، وأخرى تعين على الحفظ، وثالثة فيها شروح وتفاسير، وفي قرص صلب واحد يمكن أن يتوافر للطفل مكتبة قرآنية شاملة.

يقول الدكتور عبد الكريم اليافي: "على أن أهم ميزة للغة العربية تشرفها بنزول القرآن الكريم فيها حين أصبحت لغة الوحي ولغة اتصال الأرض بالسماء...ولقد حفظ العرب والمسلمون قرآنهم فحفظ لهم لغتهم، ولا شك أن استمرار اللغة العربية وخلودها متصل بالقرآن الكريم".(اليافي، ص٢٢)

ثم يؤكد قدسية اللغة العربية، ويعدها لغة أهل الجنة، فيقول: "إذا تصور المسلمون أحوال الجنة في الآخرة وما ورد في حق أهلها من التمثيل بأحوال أهل الدنيا فلابد من أن يتخيلوا لهم لغة، ولما كان القرآن الكريم كلام الله الذي تنزل على خاتم النبيين كانت لغة القرآن خليقة أن تكون لسان أهل الجنة".(اليافي، ص٣٠)

إن العربية بفضل القرآن الكريم الذي يتلى آناء الليل وأطراف النهار في العالم كله ظلت مستمرة إلى اليوم لغة حية منذ خمسة عشر قرناً، ولم تنقطع، وما قيل بها من شعر أو نثر قبل ألف وخمسمئة عام ما يزال يقرأ بأصواته ونبراته ويفهم، ويتمثل به الناس ويحفظونه، ويشهد على ذلك الشعر الجاهلي والخطب والأمثال، كما يشهد على ذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي أحاديثه من الفصاحة والبيان ما ليس لسواه من البشر، وقد أوتي جوامع الكلم، ووصفه المولى عز وجل فقال:" وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القُوى" (سورة النجم ٥٣ الآيات ٣ ـ ٥)، كما يشهد على استمرار اللغة العربية وبقائها القرآن الكريم.

خاتمة:

لقد ازدهرت في العصر العباسي صناعة الورق، وكثرت الكتب، تأليفاً وترجمة، وانتشرت، وجهد النساخ في الإكثار من نسخها، وبنيت دكاكين الوراقين، وأقيمت دور الكتب، وكان الكتاب يمثل تطوراً نوعياً، وبه دخلت الثقافة مرحلة من التطور، ولقد وصف الجاحظ (توفي ٢٥٥هـ ٨٦٨م) في تلك المرحلة الكتاب، وعبر عن مكانته الحضارية، وقيمته الثقافية، وهو وصف طويل، ولكنه شامل، وفيه يقول: " نعم الذخر والعُقدة هو، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخِيل، ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً، وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً؛ إِنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبانِ وائل، وإن شئت كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِهِ، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه، وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه، وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرِ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارّ...ومَنْ لكَ بطبيب أعرابيّ، وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْدِيّ، وبفارسيٍ يُونَانيّ، وبقَدِيمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأَوَّلَ والآخِر، والناقص والوافِر، والخفيَّ والظاهر، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيع، والغثَّ والسمين، والشِّكْلَ وخِلافَه، والجِنسَ وضدَّه. وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل في رُدْن، ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْرٍ، وناطقاً ينطِق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء وَمَنْ لك بمؤنس لا ينام إلاّ بنومِك، ولا ينطق إلاّ بما تهوَى؛ آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحْفِظَ من الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعربين، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغال، ومن العُميانِ قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص... ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ، ولا خَليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلِّماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايَةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً، ولا أحفَلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً، ولا

أقلَّ غِيبةً، ولا أبعدَ من عَضِيهة، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً، ولا أقلَّ تصلُّفاً وتكلُّفاً، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْرَك لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب، ولا أعلَمُ قريناً أحسنَ موَافاةً، ولا أعجَل مكافأة، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مؤونة، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمعَ أمراً، ولا أطيَبَ ثمرةً، ولا أقرَبَ مُجتَنى، ولا أسرَعَ إدراكاً، ولا أوجَدَ في كلّ إبَّانٍ، من كتاب، ولا أعلَمُ نِتاجاً في حَدَاثةِ سنِّه وقُرْب ميلادِه، ورُخْص ثمنه، وإمكانِ وُجوده، يجمَعُ من التدابيرِ العجيبَة والعلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة، ومِنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارِبِ الحكيمة، ومِنَ الإخبارِ عن القرون الماضية، والبلادِ المتنازِحة، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتابُ". (الجاحظ، ج١ص١٢-١٣)

ولكأن الجاحظ وهو يصف الكتاب إنما يصف بديله لهذا اليوم وهو الحاسوب، ولا سيما المحمول.

ولا بد في الختام من القول إن الحاسوب ليس معجزة، وليس بإمكانه أن يصنع معجزة، وما هو بعصا سحرية تفعل المستحيل، وهو لا يعمل وحده، ولا بد من إنسان يغذيه بالبرامج، ولا بد من إنسان يتعامل معه، وفي حالة الطفل، لا بد له من توجيه ورعاية وإرشاد، وهو يعمل على الحاسوب، سواء في المدرسة أو مقهى الحاسوب أو البيت، ولا تتحقق الغاية المرجوة من الحاسوب إلا إذا عم وانتشر، لأن النهضة لا يصنعها فرد، ولا تتمثل في حالة خاصة، وإذا ترك الأمر كله من غير وعي وتخطيط فقد يقود إلى غير ما هو متوقع.

إن تعليم الطفل وتعلمه بوساطة الحاسوب سيحدث تغييراً كبيراً في عالم الطفل، بل سيحدث تغييراً كبيراً في العالم كله، والمرجو لهذا التغيير أن يكون دائماً في خير الإنسان.

المراجع

١. بيكرتون، ديريك، اللغة وسلوك الإنسان، تر.د. محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، السعودية، ٢٠٠١.
٢. الجاحظ، الحيوان، تح. عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط.٣، ١٩٦٩.
٣. جيتس، بيل، المعلوماتية بعد الإنترنت، تر. عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٣١، مارس آذار، ١٩٩٨.
٤. سبندر، ديل، مدرسة المستقبل، تر. عيسى إسماعيل، مجلة بناة الأجيال، دمشق، العدد ٤٦ شتاء ٢٠٠٣.

٥. السيد، د.محمود أحمد، في طرائق تدريس اللغة العربية، مطبوعات جامعة دمشق، دمشق، ١٩٨٨.
٦. غنيم سيد، اللغة والفكر عند الطفل، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثاني، العدد الأول، أبريل مايو يونيو، ١٩٧١.
٧. المعتوق، د.أحمد محمد، الحصيلة اللغوية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢١٢، أغسطس آب ١٩٩٦.
٨. اليافي، د.عبد الكريم، دراسات فنية في الأدب العربي، دمشق، ١٩٧٢.

القراءة والحضارة

القراءة هي عملية تلقي رسالة من الآخر، وهذه الرسالة يتم تلقيها في المخ عبر العين أو اللمس وبوساطة رموز متفق عليها بين المرسل والمتلقي. وهذه الرموز هي الحروف أو الصور التي هي رموز لأصوات تشكل كل مجموعة رموز منها مفهوماً أو معنى. ولعل أبسط مثال عليها إشارات المرور وعلاماته الممتدة على طرق السفر، فهي رموز متفق عليها، تراها العين، ويدركها المخ، فيحولها إلى مفهومات. واللغة أكثر منها رقياً وتطوراً، وقد بدأت في الواقع مثلها، فكانت صوراً، أو أجزاء من صور، كالكتابة الهيروغليفية، وهي مرحلة الكتابة التصويرية، ثم تلتها مرحلة الكتابة المقطعية، ثم الهجائية.

إن عملية القراءة هي عملية معقدة، يشترك فيها قوى وفعاليات متعددة، إذ تعتمد على العين، أو اللمس والمخ والذاكرة والفهم والربط والإدراك، فالعين أو الإصبع تلتقط الرمز وتحمله إلى المخ، فينبه الذاكرة التي تفسر الرمز وتذكر بما يرتبط به، فالعين مثلاً تنقل كلمة"قمر"، وهذه الكلمة تثير ما في الذاكرة من استدعاءات، ثم تجري عملية الربط بين الكلمة والكلمات الأخرى، لوضعها في سياقها النحوي وإدراك ما بينها وبين الكلمات الأخرى من علاقات، ومن هذا الربط يتم الوصول إلى المفهوم أو المعنى العام، ثم يكون تخزينه في الذاكرة. إن العملية معقدة ومركبة، ولكنها تحدث في واحد من ألف جزء من الثانية، إذ إن الإنسان يستطيع في المتوسط أن يقرأ بين مئتي كلمة وثلاثمئة كلمة في الدقيقة.

آلية القراءة:

وعملية القراءة هي عملية في المخ أولاً وليست في العين، أو اللمس، وكذلك ليست القراءة في الفم أو بالصوت، وإن كان الفم أو الصوت يشترك في العملية في مراحل بدائية، وإن كانت هذه المشاركة ما تزال مستمرة إلى اليوم في كثير من الحالات، فبعض الأشخاص لا يستطيعون في أثناء القراءة إلا أن يرفعوا أصواتهم، أو يهمسوا بها، أو لا يستطيعون إلا أن يحركوا شفاههم على الأقل، كما أن بعض الأشكال من القراءة لا بد فيها من الصوت ومشاركة الفم، كقارئ نشرة الأخبار، أو قارئ الصلوات في المعابد، أو المعلم في الصف ولا سيما في دروس القراءة، ولكن عملية القراءة من ناحية تشريحية بحتة لا تكون إلا في الدماغ، والدماغ وحده. والقراءة بصوت عال أمام الآخرين ولأجلهم هي في الواقع عملية إرسال الرسالة لا استقبالها، أي إنها بشكل ما عملية قراءة وظيفتها الإرسال لا الاستقبال، والإبلاغ لا الفهم، ولذلك تقل درجة الفهم والاستيعاب لدى القارئ بصوت عال.

ويروى أن الإسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد هو أول من قرأ رسالة أمام جنده بعينيه من غير أن يجهر بصوته، وقد ذهل الجند إذ كيف يمكن أن يقرأ رسالة من غير أن يرفع صوته، وهذا يدل على أن القراءة الصامتة هي تحول عن القراءة بصوت مسموع، وأنها تالية لها في مراحل التطور، ولعل الذي يؤكد ذلك أن الحروف هي رموز لأصوات، وأن التعليم لا بد أن يبدأ بأصوات الحروف، ثم يكون بعد ذلك تجريد الحرف من الصوت ليتحول إلى رمز.

ومن الضروري الإشارة إلى أن القشرة الخارجية من المخ هي التي تقوم بفعل القراءة، وتسمى القشرة البشرية، وهذه القشرة تقوم بست عمليات أو وظائف، وهي مقتصرة على الإنسان، وهي التي تميزه من سائر الكائنات، وهي وفق غلين دومان"ص ٦٢ ـ ٦٣":

١. قدرة الإنسان وحده على السير بانتصاب كامل.
٢. قدرة الإنسان وحده على أن يتكلم بلغة مجردة ورمزية قام هو بإبداعها.
٣. قدرة الإنسان وحده على أن يجمع مهارته اليدوية الفريدة مع القدرات الحركية المذكورة أعلاه ليكتب لغته.
٤. قدرة الإنسان وحده على فهم اللغة المجردة الرمزية التي أبدعها بمجرد سماعها.
٥. قدرة الإنسان وحده على تعرف الأشياء عن طريق اللمس فقط .
٦. قدرة الإنسان وحده على أن يرى بطريقة تمكنه من قراءة اللغة المجردة متى كانت في صيغة مكتوبة .

والمهارات الثلاث الأولى هي من طبيعة حركية صادرة وهي مبنية على الثلاث التالية التي هي من طبيعة حسية مستقبلة. إن العين ترى ولكنها لا تفهم ما تراه، والأذن تسمع ولكنها لا تفهم ما تسمع، إن ما يفهم هو المخ، وعندما تلتقط الأذن كلمة منطوقة فإن هذه الرسالة السمعية تتحلل إلى سلسلة من الإشارات العصبية impulses الكهروكيميائية ترسل إلى المخ، حيث يتم تجميعها ثانية ليصار إلى فهم المعنى الذي تقصد الكلمة نقله. وبالطريقة نفسها كما يرى غلين دومان"ص٦٠"تتحلل الصورة البصرية عندما ترى العين كلمة مطبوعة إلى سلسلة من الإشارات العصبية الكهروكيميائية ترسل إلى المخ الذي يعود بإعادة تركيبها ليفهمها قراءة.

القراءة أساس الرقي:

سئل فولتير عمن سيقود الجنس البشري فأجاب:"الذين يعرفون كيف يقرؤون ويكتبون"وإلى هذا أشار توماس جيفرسون الرئيس الأمريكي إذ يقول:"إن من يقرؤون هم الأحرار فقط، لأن القراءة تطرد الجهل والخرافة،

وهذان من ألد أعداء الحرية"، ويرى الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون أن"القراءة تصنع الإنسان الكامل"، ويرى أديسون أن "المطالعة للعقل كالرياضة للجسم"السيد ص ٣٢٧"، وعندما أطلقت روسيا القمر الصناعي عام ١٩٥٧ اهتزت الأوساط التربوية في أمريكا وتساءلوا عن السبب الذي جعل الروس يتفوقون عليهم، وجاءت الدراسات تشير إلى أن السبب في ذلك يرجع إلى إخفاق المدرسة الأمريكية في تعليم الناشئة القراءة الجيدة، ورفع أحد المسؤولين التربويين شعاراً هو"حق كل طفل في أن يكون قارئاً جيداً في السبعينات""السيد ص ٣٢٨".

واللغة أهم أداة توافرت للإنسان، ولا يمكن لأي شخص أن يبدع أفكاراً أكثر تطوراً من اللغة التي يصوغها بها، وهناك شعوب في الأرض لا تعرف اللغة المكتوبة وإن عرفتها فهي من نوع بدائي، هذه القبائل ليست معدومة الثقافة فقط بل إن نصيبها من الذكاء قليل وقدرتها على الإبداع ضعيفة "إن تراث الأسكيمو وثقافتهم لم يتبدلا خلال ثلاثة آلاف السنة التي تشكل تاريخهم المعروف، إذ ليس للأسكيمو لغة مكتوبة، وأما لغة الكلام فبدائية، إن عدم توافر مادة للقراءة أو النقص في القدرة على قراءة ما توافر منها يؤدي حتماً إلى ضعف في الثقافة وأكثر من هذا، إنه يؤدي إلى مستوى منخفض من الذكاء""غلين دومان ١١٦".

وكان الأمريكيون يمنعون السود من التعلم، حتى قراءة الإنجيل كانت ممنوعة عليهم، وكان تعليم القراءة جريمة يعاقب عليها القانون، وإذا تكررت فقد يعدم المعلم الأسود، وكان تعلم القراءة وتعليمها عمليات سرية ومعقدة وخطرة يقوم بها السود في أماكن سرية أو بطرق ملتوية مثل سرقة الكتب أو إبداء الإعجاب بالسادة الأطفال لتشجيعهم على إلقاء النصوص التي تعلموها والتظاهر بمرافقتهم للتعلم منهم وسرقة كتبهم.

إن الكلمة قوة يدركها الطغاة أكثر من المستضعفين ويدركون أيضا أن الجماهير الأمية تكون سهلة الانقياد، فكانت عمليات حرق الكتب وحظرها والرقابة عليها وكانت الرقابة على الكتب وما زالت رديفاً للحكم. يقول د.أشلي مونتاكو:"إن الواسطة المهمة التي يتحضر بها الإنسان إن هي إلا نظام من الرموز يتوسط بين المؤثر والمتأثر، وهذا النظام هو اللغة، فاللغة تضيف بعداً جديداً إلى عالم الإنسان""المعتوق ص ٤١".

ولقد أكد الفيلسوف الفرنسي إتين كونديلاك أن المعارف والمفاهيم والخبرات تستمد أساساً من الإحساسات، أي من خلال التجارب الحسية، ولكن الوساطة الأولى لاكتساب هذه المعارف والمفاهيم والخبرات هي اللغة، وبذلك تصبح الأحاسيس واللغة معاً أساساً لتكوين الأفكار الكلية، وإنشاء العمليات النفسية

وتطوير الخبرات العقلية، وأساساً للذكاء"المعتوق ص ٣٧ ـ ٣٨". أما بياجيه فقد رأى أن الأفكار والمفاهيم تكتسب من المجتمع، ولكنه أكد أن الوسيلة الأساسية لاكتساب هذه الأفكار والمفاهيم ونموها ونمو المخططات العقلية المنبثقة والمتطورة عنها في السياق الاجتماعي هي اللغة"المعتوق ص ٣٨".

القراءة الناقدة:

إن القراءة وحدها غير كافية، ولا بد أن تكون القراءة ناقدة، تستند إلى الوعي، وتقوم على الثقافة والاطلاع، وتمارس النقد، فتميز الضعيف من القوي، والخبيث من الطيب، والصالح من الفاسد، إن للكلمة المطبوعة، سحراً لا يقاوم، وتأثيراً لا يُمحى، ومن هنا كان على القارئ أن ينقد ما يقرأ، وأن يمحصه، وأن يبحث عن الأصح والأجمل والأقوى والأفضل، من خلال المحاكمة والمقارنة، فما كل ما هو مطبوع جدير بالقراءة، وقد جاء في المثل العامي:"ما كل من قرى درى"، أي ليس كل من قرأ ملك الدراية والخبرة، وهذا يقتضي القراءة الناقدة، وقد استخدم مصطلح القراءة في العصر الحديث بمعنى النقد وبمعنى التذوق، ومن ذلك كتاب لصلاح عبد الصبور عنوانه:"قراءة جديدة في شعرنا القديم"ومن ذلك كتاب عنوانه:"كيف تقرأ صورة"أي كيف تتذوق لوحة فنية.

تسريع القراءة:

يتسم هذا العصر بالسرعة، فالمطابع ترمي كل يوم ملايين الكتب، وعلى المثقف أن يجاري روح العصر، ولابد من أن يعود نفسه على القراءة السريعة، ويروى أن عباس محمود العقاد كان ينجز كل يوم قراءة كتاب، والقراءة السريعة لا تتنافى مع الفهم العميق، بل إن من شروطها الفهم العميق، والاستيعاب السريع، وقد اقترح الباحثون في مجال القراءة عدة طرق لتسريع القراءة، ووضعوا معايير لذلك، فالمعدل الوسطي للقراءة يترجح بين مئتي كلمة وثلاثمئة كلمة في الدقيقة، أي بمعدل صفحة واحدة من القطع الكبير، فإذا استغرقت قراءة الصفحة أكثر من دقيقة فهذا يعني أن القارئ بطيء.

ومما يساعد على تسريع القراءة مع عمق الفهم :

١. قراءة العناوين الفرعية ومسح المقال كله مسحاً سريعاً وذلك بقراءة الجمل الأولى في الفقرات.

٢. القراءة للجمل قراءة كلية سريعة.

٣. عدم التوقف عند الكلمات للتأكد من دقة معناها والاكتفاء بالإدراك الكلي للجملة.

٤. عدم العودة إلى بعض الجمل أو الكلمات.

٥. عدم لفظ الجمل أو الكلمات بصوت مسموع وعدم تحريك الشفاه لأن القراءة بالعين والتصور وليست بالصوت، فعندما تقرأ

كلمة"قمر"تتصور القمر، ولا تلفظ كلمة"قمر"، لأن الحروف على الورق هي رموز لا أصوات، والجملة المقروءة هي معنى وفكرة، وليست أصواتاً ولا موسيقا.

٦. تلخيص فكرة المقطع الواحد بعد الفراغ من قراءته في جملة قصيرة جداً وكتابتها على الهامش إلى جانب المقطع.

٧. قراءة سريعة لأفكار المقاطع كما سجلها القارئ على الهوامش.

٨. وضع ملخص في خمسة أسطر يتضمن أفكار الفصل بصورة شاملة.

٩. وضع عنوان يحتوي مضمون الفصل كله.

ومما لا شك فيه أن سرعة القراءة تختلف من كتاب إلى كتاب، فقراءة رواية ليست كقراءة كتاب في القانون والتشريع، وقراءة كتاب في النقد الأدبي ليست كقراءة كتاب في الطب، وليست قراءة الجريدة في قطار كقراءة كتاب جامعي مقرر من أجل الامتحان، ولكن تظل السرعة في القراءة مطلوبة في الحالات كلها، وإن اختلفت السرعة من قراءة إلى قراءة، كما تظل تلك الخطوات مفيدة لمعظم أشكال القراءة.

وهناك ما يسمى القراءة التصويرية، وهي كقراءة الماسح الضوئي للصفحة، أي قراءة الصفحة في ثانية واحدة، بقراءة الجمل المفتاحية في بداية المقاطع، والتقاط أهم الجمل، وهي كقراءة الموظف في الديوان لما يصله من معاملات، إذ لا يقرأ الصفحة كلها إنما يقرأ رأس الموضوع ليصنف الطلب في السجل المخصص له، أو هي كقراءة السكرتيرة لكتاب ما.

فائدة القراءة:

إن الكتاب هو الذي يختزن خبرة العمر، ويحفظ تاريخ الأمة، وينقل تجارب الشعوب، وقراءة كتاب تعني إضافة عمر إلى عمر الإنسان، تعني اكتساب خبرة حياة، ومعرفة دهر في ساعات، وهذا ما يساعد الأمة على الرقي والنهوض، وما تقرأه العين مكتوباً يحفظه الدماغ في تلافيفه فلا ينسى، وبه تزداد المقدرة على المحاكمة، كما تزداد القدرة على التلقي والإضافة والابتكار، من خلال المخزون، ومن هنا نشأت الحضارات.

ولقد أكد القرآن الكريم أهمية فعل القراءة، فجعله أول آية في التنزيل، وذلك في قوله تعالى:"اقرأ باسمِ ربِّك الذي خلق، خَلَقَ الإنسانَ منْ علَق، اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم"الآيات ١ـ ٥ من سورة العلق ٩٦، وقد أكد المولى تعالى أن التعلم هو بالقلم، أي باللغة التي يخطها القلم، أي بالتدوين وبفعل القراءة، وقد ذكر المولى ذلك ثانية في قوله تعالى:"الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان"الآيات ١ـ ٤ من سورة الرحمن ٥٥، فقد قدم

المولى عز وجل فعل تعليم القرآن على فعل الخلق، دلالة على أن الوجود الحق يتمثل في فعل التعلم والقراءة أوّلاً، الذي هو أسبق في القيمة والأهمية من الوجود الجسدي، وفي هذا تكريم للإنسان. وفي آيات أخرى حض المولى على السير في الأرض والنظر فيها والتفكير في الكون ومظاهر الخلق، ولكن جعل فعل القراءة هو الأول وجعل التعلم هو الأول، قال تعالى:"قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المجرمين"الآية ٦٩ من سورة النمل ٢٧ وقال عز وجل:"أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ، وإلى السماء كيف رُفِعَتْ، وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ، وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ"الآيات ١٧ــ ٢٠ من سورة الغاشية ٨٨، وبذلك يتكامل فعل القراءة وفعل النظر، ولكن الأولوية للقراءة.

القراءة عادة اجتماعية:

ولابد من القول أخيراً: إن القراءة ظاهرة حضارية، وهي في المجتمعات المتقدمة والمتحضرة عادة اجتماعية، وفي مثل هذه المجتمعات يقرأ الناس كلهم، وهم يقرؤون كل شيء، في الأوقات كلها، في السفر بالطائرة وفي الانتقال في الحافلة، يقرؤون وهم ينتظرون في المطار، ويقرؤون وهم يتنزهون في الحديقة، وبذلك تتحول القراءة إلى فعل اجتماعي منتج، لا يمارسه أفراد متخصصون فقط، بل يمارسه المجتمع، فيخلق فعل القراءة الوعي، ويساعد على النهوض والتقدم، وبخلاف ذلك كله المجتمعات غير المتقدمة، إذ يبتعد أفرادها عن القراءة، ويغرقون في التسلية، ولاسيما في المقاهي وأمام التلفاز.

المراجع

١. أونج، والتر. ج، الشفاهية والكتابية، عالم المعرفة، الكويت، فبراير/ شباط، ١٩٩٤.
٢. دومان، غلين، علم طفلك القراءة، تر. عدنان اليازجي، لا تاريخ، ولا إشارة لمكان النشر.
٣. السيد، د. محمود، في طرائق تدريس اللغة العربية، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨٧ـ ١٩٨٨.
٤. مجموعة من المؤلفين، لماذا نقرأ، دار المعارف بمصر، لا تاريخ.
٥. المعتوق، د. أحمد محمد، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس آب، ١٩٩٦.

متعة القراءة بين التلفاز والحاسوب

تشهد المجتمعات - ولاسيما المتخلفة - إقبالاً شديداً على التلفاز، فقد أخذ مكاناً له في المنزل والمحل والمقهى ووسائل المواصلات، بل أخذ أمكنة له في القلب والوجدان، وملأ العقول وشغل الناس، وإن لم يكن حتى الآن قد ألغى الكتاب، فقد أفقده كثيراً من فاعليته، وجعله يتراجع إلى الصفوف الأخيرة، ليغدو موضع اهتمام النخبة فحسب، فما هي أسباب هذه الظاهرة؟ وما مضاعفاتها؟ وكيف يمكن معالجتها؟

لقد تطورت البشرية من الشفاهية إلى الكتابية، فقد تناقل الناس خبراتهم ومعارفهم وأشعارهم وآدابهم ردحاً من الزمن شفاهاً بالحفظ والرواية من جيل إلى جيل، وفي تلك الحقب من الشفاهية لم تنشأ علوم حقيقية، وإنما ظهرت خبرات أولية مكتسبة من خلال التجربة والحياة اليومية، ولم تبدأ العلوم بالنشوء إلا مع ظهور الكتابة، وقد مرت هذه الكتابة بمراحل، من الكتابة بالصور، كما في الكتابة الهيروغليفية، إلى الكتابة المقطعية، حيث هناك مئات وربما ألوف من الرموز التي تكتب بها اللغة، إلى أن عرف الإنسان الأبجدية، وهي مجموعة حروف لا تكاد تبلغ الثلاثين دونت بها أصوات اللغة، وحين تم اكتشاف الأبجدية حققت البشرية قفزة نوعية، ثم كانت القفزة النوعية الثانية مع ظهور الطباعة، وكانت القفزة الثالثة مع ظهور الحاسوب ووسائل الاتصال الحديثة، وهذا كله يؤكد أن الكلمة المكتوبة والمقروءة هي سبيل البشرية إلى التقدم وبناء الحضارة، لأن الحروف والكتابة للعقل البشري هي كالمعول لليد والمنظار المكبر للعين، بل الحروف كالطائرة النفاثة لمن يريد عبور القارات.

بالحروف المكتوبة والمقروءة تنضج الأفكار وتقوى، وتحفظ المعارف وتنمو وتتطور، وتنظم العلوم وتخضع للمنهجية والمنطق، وتغدو علوماً بالمعنى الدقيق لمصطلح العلم، أما اللغة المنطوقة وحدها والمحفوظة شفاهاً فلا يمكنها أن تصنع علماً، والشاهد على ذلك اللغة العربية في مرحلة ما قبل الكتابة والتدوين، التي لم تظهر فيها العلوم عند العرب، إنما ظهر الشعر المحفوظ شفاهاً في العصر الجاهلي أو عصر ما قبل الإسلام، ولم يكن للعرب سوى المرويات من الأخبار، وبعض المدونات من المواثيق والعهود، حتى قصة تدوين المعلقات وتعليقها على الكعبة ليست صحيحة، إذ لم يرد لها ذكر لدى الأقدمين،، مع العلم بأن أول من جمعها هو حماد الراوية"توفي ١٨٥هـ ٨٠١م"وقد أسماها السبع الطوال، ولم يذكر قصة تعليقها، وأول من ذكرها ابن الكلبي"توفي ٢٠٤هـ ٨١٩ م"وهو غير موثوق الرواية، ولم يذكر قصة التعليق أي من اللاحقين إلى أن ذكرها ثانية ابن عبد ربه"توفي ٣٢٧هـ ٩٣٨م"في كتابه العقد الفريد، وهي إن صحت فإنما تدل

على قلة التدوين وندرته، وأنه لا يدون إلا ما هو متميز، ومهما يكن فإنه مع انتشار التدوين بدأت العلوم بالتشكل والظهور.

وأول ما دُوِّن لدى العرب ووزِّع في الأمصار هو القرآن الكريم، وحوله نشأت العلوم، فمن أجل صحة تلاوته وضع النحو، ولأجل النحو جمعت اللغة كما جمعت الأشعار ودونت لصحة الاستشهاد على اللغة، وبدأت بالظهور المدوَّنات اللغوية، ودوِّنت أحاديث رسول الله ﷺ، ولصحة الأحاديث نشأ علم الجرح والتعديل، أي سير رواة الحديث وأخبارهم، وكتبت السيرة النبوية، ومن هنا نشأ علم التاريخ، ولما اتسعت بلاد المسلمين واتصل العرب بالشعوب والأمم واضطروا إلى محاجتهم في دينهم وحوارهم ترجموا عنهم الفلسفة والمنطق وسائر العلوم وبدأت حركة الترجمة والتأليف بالازدهار، وصاحب ذلك انتشار صناعة الورق وقد أخذها العرب عن الهنود والصينيين، ويروى أن المأمون"توفي ٢١٨هـ ٨٣٣م"كان يمنح للمترجم زنة كتابه ذهباً. وهكذا نشأت حول القرآن الكريم معارف وعلوم وتطورت، وهو أول كتاب مدون لدى العرب، أي إن الكتابة والقراءة هي أساس ظهور العلوم ونشوء الحضارة.

إن فعل القراءة هو الذي يقوي الدماغ ويزيد من قدرة العقل على المناقشة والمحاكمة، لأنه يزود العقل بثروة معرفية كما يزوده بثروة لغوية فيصبح أقدر على الحوار، لأننا نفكر باللغة، واللغة تثير الانفعال وتوقظ المشاعر وتنبه الحواس، ولكن عبر اللغة، أي عبر قيمة جمالية، وعبر وسيلة معرفية، وفعل القراءة صعب، لأنه يحتاج إلى جهد بصري، وجهد عقلي، وجهد عصبي، وهو متعب، ومما لا شك فيه أن الصورة تدعم فعل القراءة، ولكنها وحدها غير كافية، لأن الصورة تثير الانفعال وتنبه المشاعر وتحرك الغرائز أكثر مما تخاطب العقل، ولعلها أكثر راحة وأكثر تسلية، فالتعامل مع الصورة سهل وممتع، والمشكلة ليست في اللغة أو الصورة، فهما في الحقيقة وسيلتان متكاملتان، ولكن المشكلة في طغيان الصورة على الكلمة المقروءة، فالصورة وحدها تعوِّد المتلقي على التسلية والكسل ولاسيما في التلفاز، إذ تجعل المتفرج مستسلماً يتلقى كل ما يعرض عليه، ويقبله ثم يقر به ويعترف، ثم يجعله وحده المقياس الصحيح من غير أن يقدر على الرفض أو المناقشة والحوار، حتى يغدو لدى بعض الناس ما يعرض في التلفاز وحده هو الحامل للقيمة، أما ما عداه فلا قيمة له. ومما لاشك فيه أن بعض القنوات متخصصة، وهي تقدم برامج علمية ومعرفية، ولكنها قليلة، والمتعاملون معها قلة، ولا تخلو من خطورة، وهي تعويد المتلقي على الصورة، فيكتفي بها، مما قد يجعله يلغي فعل القراءة، فتضعف لديه القابلية لتلقي اللغة، ويموت لديه الصبر على القراءة، فيستسلم للسهل والممتع.

والمشكلة أكثر ما تكون وضوحاً في المجتمعات المتخلفة، إذ نسبة الأمية فيها عالية، وكذلك نسبة البطالة، حتى المتعلمون أنفسهم غير مثقفين أو نصف أميين، مما يجعل للتلفاز مكانة كبيرة في حياتهم، حتى غدا المصدر الثقافي الوحيد لكثير من المتعلمين الذين يصرحون بموت الكتاب، وتكفي الإشارة إلى وسائل النقل بين المدن، إذ لا تخلو وسيلة من تلك الوسائل من جهاز تلفاز أو جهاز عرض فيديو، حتى في سيارات الأجرة الصغيرة، ولا ترى مسافراً يحمل كتاباً أو جريدة، ولا تختلف الصورة في الطائرات المسافرة بين الدول المتخلفة، في حين تختلف الصورة كلياً في وسائل النقل الداخلي في البلاد المتقدمة، إذ لا تكاد تجد في الغرب مسافراً في قطار أو طائرة أو راكباً في عربة"مترو"وهو لا يقرأ في كتاب أو جريدة، وفي مواقف الحفلات ومداخل"المترو"تعرض الصحف والجرائد، وبعضها يوزع مجاناً، حتى إن المرء ليجد في استوكهولم الصحيفة على المقعد في الحافلة أو إلى جانبه على مسند المقعد.

إن خطورة التلفاز لا تظهر في الفرد المثقف الواعي، فهو قادر على الاختيار، ويعرف أن الفائدة في الكتاب أكبر، وحين يتعامل مع التلفاز يتعامل معه بقدر محسوب، فيأخذ منه بقدر، ويترك بقدر، ويمنحه بعض وقته بحساب، ولا يستسلم لإغراءاته، إن خطورة التلفاز أكثر ما تظهر في الجماهير العادية المتوسطة في تعليمها، فهي الأكثر انصياعاً للتلفاز، ونسبتها في المجتمع أكبر، وهنا تكمن الخطورة، إذ يصبح التلفاز وسيلة للتأثير في الجماهير وقيادتها، وللتغيير في البنية الثقافية للمجتمع، في أخلاقه وعاداته وتقاليده وطبيعة تفكيره، فيلبس الناس مثلما يرون في التلفاز، ويتكلمون كما ينطق أمامهم، في اللهجة واللغة ومنحى التفكير، فينطقون بما يبث من أفكار، ويفكرون كما يريد لهم أن يفكروا، وبذلك يغدو وسيلة ـ وهو كذلك ـ لترويج أفكار بعينها من خلال التسلية والترويح عن النفس، فإذا الجماهير منقادة من غير أن تدري.

واليوم والعالم يدخل القرن الحادي والعشرين، يفترض بالشعوب المتخلفة أن يزيد فيها الاهتمام بالعلم واللغة وأن يزيد فيها الاهتمام بالقراءة والكتابة، ولكن يلاحظ فيها العودة إلى ثقافة المشافهة والسماع والفرجة والتخلي عن ثقافة القراءة باللغة المكتوبة، والشاهد على ذلك القنوات الفضائية التي يقعد أمامها ساعات وساعات المتفرج الأمي والمتعلم والمثقف، ويتخذ منها وحدها مصدراً لمعلوماته وثقافته، لأنها تقدم إليه أبسط أشكال المعرفة وأكثرها أولية بأكثر الأشكال يسراً وسهولة، بل بأكثر الأشكال ترفيهاً وتسلية، وهو يحسب أنه عرف كل شيء، مؤكداً أن التلفاز قد أغناه عن المطالعة والكتاب، وإذا به يلغي الكتاب وينصرف عن المطالعة، ويتخذ من الصورة المرئية والخبر المسموع مصدراً وحيداً لكل أشكال معرفته.

ومما لاشك فيه أنه لا يمكن إلغاء التلفاز، ولا يمكن لعاقل أن يفكر في شيء من ذلك، بل لا يمكن التقليل من قيمة ما يقدم من خبرة ومعرفة وعلم، ولكن يمكن القول: إن التلفاز وحده لا يكفي، ولا يجوز أن يطغى على مصدر آخر وهو الكلمة المكتوبة، لأن الكلمة المكتوبة هي التي تعطي نسقاً معرفياً خاضعاً للتنظيم والتبويب ووفق منهجية، وهذا ما يحتاج إليه العقل، وهذا أيضاً ما تبنى به العلوم وتصنع الحضارات، أما ثقافة الصورة وحدها فلا يمكنها أن تصنع شيئاً من ذلك، فهي للتسلية أكثر منها للمعرفة، وهي للمتعة أكثر منها للفائدة، وهي للثقافة العامة أكثر منها للمعرفة المتخصصة والعلم المعمق، ولقد أكد ذلك كله الفيلسوف الأمريكي مارشال ماكلوهان، في كتابه عن وسائل الإعلام الذي جعل عنوانه:"الوسائل هي الرسائل"مختصراً بذلك مهمة التلفاز ووظيفته، وهي أن كل رسائله إنما تنحصر في وسائله، أي إنه لا رسالة له سوى التسلية، والعنوان بالإنكليزية:" The Medium is the Message"وقد قرأه والتر أونج:" The Medium is the Massage"وهو محق في تلك القراءة، إذ يصبح العنوان عندئذ :"الوسائل هي التدليك".

والمشكلة في أن أكثر القنوات الفضائية موظفة للتسلية والمتعة أكثر مما هي موظفة للعلم والفائدة والمعرفة، وهي تدغدغ مشاعر الجماهير وتخاطب غرائزها، فتنساق الجماهير وراءها غير مقدرة خطورة ما تقدمه لها تلك القنوات وخطورة ما تفعله في العقول والأعصاب والأجسام والعادات، لأنها تصوغ الوجدان صياغة جديدة، فتجعل الإنسان يعتقد أن الصورة هي كل شيء، وأن عهد الكلمة المكتوبة قد ولى، وهي تجعل وعيه وانفعاله ينساق وراء التنوع السريع وكسر المنهجية والتقاط الجزئيات دون إدراك الكل ودون إقامة علاقات بين العناصر، فثمة برنامج لدقائق معدودة عن الطب وآخر عن الفلك وثالث عن الأدب ورابع عن البحار، وكلها تجري بسرعة، وتقدم جزئيات ولا تقدم أنساقاً معرفية منظمة، فيظن المرء أنه عرف كل شيء، وهو لم يعرف في الحقيقة شيئاً، ولو سئل بعد دقائق عن معلومة سمعها لما استطاع أن يتذكر شيئاً منها.

وهكذا يصاغ نمط جديد من التفكير، هو نمط بدائي، قوامه التنوع الشديد، والاهتمام بجزئيات مفككة، وعدم التركيز، والبعد عن المنهجية والنظرة الكلية، والاعتماد في ذلك كله على الحركة والصورة، والسماع والمشافهة، دون الكتابة ودون القراءة، أي إن خطاب التلفاز بصورة عامة هو خطاب سمعي بصري محض، غايته التسلية، ولا بد من الاستثناءات ولكنها نادرة.

إن الكتاب هو الذي يختزن خبرة العمر، ويحفظ تاريخ الأمة، وينقل تجارب الشعوب، وقراءة كتاب تعني إضافة عمر إلى عمر الإنسان، تعني اكتساب خبرة حياة، ومعرفة دهر في ساعات، وهذا ما يساعد الأمة على الرقي

والنهوض، وما تقرأه العين مكتوباً يحفظه الدماغ في تلافيفه فلا ينسى، وبه تزداد المقدرة على المحاكمة، كما تزداد القدرة على التلقي والإضافة والابتكار، من خلال المخزون، ومن هنا نشأت الحضارات.

ولقد أكد القرآن الكريم أهمية فعل القراءة، فجعله أول آية في التنزيل، وذلك في قوله تعالى:"اقرأ باسمِ ربِّك الذي خلق، خَلَقَ الإنسانَ منْ علَق، اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم"الآيات ١ـ ٥ من سورة العلق ٩٦، وقد أكد المولى تعالى أن التعلم هو بالقلم، أي باللغة التي يخطها القلم، أي بالتدوين وبفعل القراءة، وقد ذكر المولى ذلك ثانية في قوله تعالى:"الرحمنُ، علمَ القرآنَ، خلق الإنسانَ، علمه البيان"الآيات ١ـ ٤، من سورة الرحمن ٥٥، فقد قدم المولى عز وجل فعل تعليم القرآن على فعل الخلق، دلالة على أن الوجود الحق يتمثل في فعل التعلم والقراءة أولا، الذي هو أسبق في القيمة والأهمية من الوجود الجسدي، وفي هذا تكريم للإنسان، وفي آيات أخرى حض المولى عزّ وجلّ على السير في الأرض والنظر فيها والتفكير في الكون ومظاهر الخلق، ولكن جعل فعل القراءة هو الأول وجعل التعلم هو الأول، قال تعالى:"قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين"الآية ٦٩ من سورة النمل ٢٧ وقال عز وجل:"أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ، وإلى السماء كيف رُفِعَتْ، وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ، وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ"الآيات ١٧ـ ٢٠ من سورة الغاشية ٨٨، وبذلك يتكامل فعل القراءة وفعل النظر، ولكن الأولوية للقراءة، ومن الخطورة أن يطغى فعل النظر على فعل القراءة.

وقديماً كتب الجاحظ"توفي ٢٥٥هـ ٨٦٨م" وصفه الشهير للكتاب، وهولا يدل على عشق الجاحظ للكتاب فحسب، بل يدل على لحظة حضارية، أدرك فيها الجاحظ أهمية الكتاب وقيمته ودوره، وهو وصف ما كان ليظهر في عصور المشافهة، بل هو عنوان حضارة ودليل نهوض، وهو وصف طويل، ومنه قوله:

"والكتاب وعاء مُلِئَ علماً، وظرف حشي ظُرْفاً، وإناء شحن مزاحاً وجِدَّاً، إن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من فوائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجَتْك مواعظُه، ومن لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسك فاتك، وببارد حار، ومتى رأيت بستاناً يُحْمَلُ في رُدْن"كُمُّ الثوب"، وروضة تُقَلُّ"تُحمل"في حِجْر"حضن"، وناطقاً ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، ولا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، ولا أقل جناية، ولا أقل إملالاً من كتاب، ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحِكَم

الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، ومن الإخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمع لك الكتاب"، ولكأن الجاحظ وهو يصف الكتاب إنما يصف بديله لهذا اليوم وهو الحاسوب، ولا سيما المحمول.

ومن الممكن أن يكون الآن الحاسوب بديلاً من الكتاب أو رديفاً له، لأنه لا يختلف عنه في شيء، فالكتاب مادة معرفية وسيلتها اللغة وأداتها الأوراق والحبر، والحاسوب مادة معرفية وسيلتها اللغة وأداتها الشاشة والمفاتيح والإضاءة، والمهم في كليهما هو عنصر اللغة وفعل القراءة، واللغة واحدة وفعل القراءة يكاد يكون واحداً، فالفرق بين القراءة في مخطوط أو في كتاب مطبوع أو في الحاسوب هو فرق في الأداة، لا أكثر، وربما كانت القراءة في الحاسوب أسرع وأمتع. وقال أحمد شوقي"توفي ١٩٣٢م":

أنا من بدَّل بالكتْبِ الصحابا   لم أجد لي وافياً إلا الكتابا
صاحبٌ إن عِبْتَه أو لم تعبْ   ليس بالواجدِ للصاحبِ عابا
كلما أخْلَقْتُهُ جدَّدَني   وكساني من حُلَى الفضلِ ثيابا
صحبةٌ لم أشكُ منها ريبةً   ووِدادٌ لم يكلفني عتابا
تجدُ الكتْب على النقد كما   تجدُ الإخوان صدقاً وكِذابا
فتخيَّرْها كما تختاره   وادَّخِرْ في الصحب والكُتْبِ اللبابا
صالحُ الإخوان يبغيك التقى   ورشيدُ الكتْبِ يبغيك الصوابا

ومثل هذه الشواهد من الشعر والأدب لا تساق هنا للتزيين ولا للبرهان العاطفي، وإنما لتأكيد شعور إنساني صادق تجاه الكتاب، ولتوضيح موقف من الكتاب فيه الصدق والرقي والحضارة، وهو موقف صالح لكل زمان ومكان، في حين لا يمكن العثور على أمثلة داعمة للتلفاز، بل إن كل الشواهد والمقولات لا تؤيده، على الرغم من الانسياق وراءه، وتلك هي آفة العصر.

إن الاعتماد في الثقافة على التلفاز وحده يعني الانتقال من الكتابية إلى الشفاهية، أو من الكلمة المكتوبة إلى الصورة، أي السير في عكس اتجاه الزمن، فليكن بعض الوقت للتلفاز، وبعض الوقت للكتاب، ولنأخذ من الصورة المرئية ولنأخذ من الكلمة المقروءة، والمهم أن نعرف دائماً ماذا نأخذ وماذا نترك.

ولعل في زيادة عدد الفضائيات وتنوعها ما يمنح فرصة كبرى لحرية الاختيار، شريطة أن يحسن المرء الاختيار، وألا يجعل الصورة مصدر معرفته الأوحد، وألا ينسى الكلمة، من أجل قراءتها في مجلة أو صحيفة أو كتاب، أو في شاشة الحاسوب، وتبقى الكلمة هي الأهم، وتبقى دعوة"اقرأ"هي الأولى أن تتبع، لأنها دعوة الله إلى الناس كافة.

الحاسوب....وآفاق القراءة المستقبلية

القراءة نشاط ذهني، وهي فعل حضاري، تطور بتطور الحضارة، والقراءة نفسها صانعة الحضارة، وقد تطورت من القراءة على الحجر والرُّقُم الفخارية إلى القراءة على الجلد والورق، ومن الخط المنسوخ باليد إلى الخط المطبوع، ومن الخط المطبوع إلى الخط الضوئي على الحاسوب، ومع تطور الحضارة كانت أشكال القراءة تتطور، كما كانت الحضارة تتطور بتطور أشكال القراءة. فعندما انتقلت الكتابة من الكتابة على المسلات وجدران المعابد إلى الكتابة على الرقاع والحجارة الصغيرة والعظام، انتقلت من كتابة الكهان في المعابد إلى كتابة الباعة والتجار وتوثيق العقود، وعندما انتقلت إلى الكتابة على الجلد بدأت تحفظ بدايات المعارف والعلوم، وعندما انتقلت إلى الكتابة على الورق قوي التأليف، وظهر الكتاب، ولكنه ظل خاصاً بالنخبة من المتعلمين، وعندما ظهرت المطبعة وراج الكتاب قفزت العلوم والمعارف قفزة كبيرة، وانتشر التعليم في أوساط الشعب، وازدهرت الطبقة المتوسطة، واليوم ظهرت الكتابة الضوئية على الحاسوب، فأصبح العالم قرية صغيرة، يتواصل الناس عبر القارات، ويتبادلون العلوم والمعارف، ويؤثر بعضهم في بعضهم الآخر، وكما يقال:"إذا رفت فراشة في بنغلادش ثارت عاصفة في لندن".

والقراءة هي خاصة إنسانية، فما من كائن حي يقرأ سوى الإنسان، وهو بالقراءة توارث الخبرات وعرف العلوم وعمر الأرض وصنع الحضارة، وهو بالقراءة نمى مشاعره وطور أفكاره وعرف المفاهيم والقيم والأخلاق، وأكد من خلالها خصوصيته الإنسانية، وهو بالقراءة عرف الدين، وبه خاطبه المولى عز وجل من خلال رسله وأنبيائه وكتبهم ورسالاتهم، وبالقراءة توجه الإنسان إلى الله عز وجل يصلي ويدعو ويتبتل، وبفعل"اقرأ"خاطب المولى عز وجل نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام، وما يزال هذا الخطاب موجهاً إلى الناس كافة، وهكذا فالقراءة فعل إنساني، ولولا هذا الفعل لما تميز الإنسان عن الكائنات الأخرى.

فما هي آفاق الكتابة على الحاسوب؟ والقراءة فيه؟ وما خصائصها وماذا يمكن أن تفتح من آفاق في المستقبل؟ ما جماليات القراءة على الحاسوب؟ وما طبيعتها وما فوائدها؟ وهل تختلف عن القراءة في كتاب مطبوع أو جريدة؟ وأي القراءتين أكثر إمتاعاً أو أكثر فائدة؟ وإذا توافرت لديك مادة واحدة، على الحاسوب وفي كتاب مطبوع، فأين تفضل قراءة المادة؟

القراءة على الحاسوب ظاهرة جديدة، والقرَّاء في الكتاب المطبوع هم أكثر عدداً، وما زالوا يفضلون القراءة في كتاب مطبوع، بل يتغنَّوْن بهذه القراءة،

ويفضلونها على القراءة في الحاسوب. ولكن مما لا شك فيه أن عدد القراء بعد فترة من الزمن غير بعيدة سوف يزداد، وأن موقفهم من القراءة في الحاسوب سوف يتغير، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن القراءة في الكتاب المطبوع أو الجريدة لن تنقطع، بل سوف تستمر، لأن أحد الشكلين، الكتاب أو الحاسوب، لن يغني عن الآخر، ولن يلغيه. ويبقى بعد ذلك السؤال: ما طبيعة القراءة في الحاسوب؟ وما خصائصها؟ وما الميزات التي تقدمها؟

تعد القراءة في الحاسوب أكثر حرية، حيث بإمكان المرء أن يطلع على كتب من أنحاء العالم كافة، لا يمكن توافرها في بلده، ولا يمكنه شراؤها، أو الوصول إليها، لأسباب كثيرة، في حين يوفرها الحاسوب، ولا تكلفه كثيراً، ولو توافرت في بلده لدفع فيها أثماناً باهظة، وعلى قرص صلب واحد مضغوط يستطيع القارئ الحصول على مئات الكتب، مما يمكن أن يملأ عشرات الرفوف، ويشغل غرفة، وقد لا يتسع لها المنزل كله وتبقى تلك الكتب في متناول القارئ على قرص رقيق، يرجع إليها وقت يشاء، ولا تشغل أي حيز. والقراءة في الحاسوب تساعد القارئ على التحكم في حجم الحرف ونوعه وشكله، فيحوله القارئ إلى النمط الذي يريده ويريحه ويعجبه، وتمكن القارئ من وضع ما يريد من تعليقات وملاحظات على النص المقروء أكثر مما كان يتيحه الكتاب المطبوع، بل بإمكانه بسرعة أن يقتطع أسطراً من المادة المقروءة وأن يحتفظ بها في ملف ليستخدمها شاهداً في الموضع الذي يريد، من غير عناء ولا جهد، كذلك بإمكانه أن يحتفظ بالمادة المقروءة في ملف وأن يحفظها على قرص مرن أو صلب ليعود إليها وقت يشاء، من غير أن تشغل في بيته أو مكتبته حيزاً كبيراً. ولعل أكبر ميزة للحاسوب في مجال القراءة هي مساعدته القارئ على قراءة الموضع الذي يريد، وتوفيره جهد قراءة الكتاب كله للحصول على بغيته، إذ توفر آلية البحث في الحاسوب للقارئ إمكانية الوقوف في الكتاب أو في كتب كثيرة على كل المواضع المتعلقة بالموضوع الذي يريده من غير أن يقرأ الكتاب كله بل من غير أن يتصفحه، وهذه الآلية في البحث من خلال الحاسوب توفر على الدارسين من الوقت والجهد قدراً كبيراً، وتضمن لهم استقصاء المادة المطلوبة.

وتوفر القراءة في الحاسوب للمواد العلمية إمكانات كبيرة لعرض الصور العلمية والإحصائيات والرسوم والمخططات بأبعادها المختلفة وحجومها المتنوعة وألوانها المميزة، ويساعد الحاسوب القارئ على التعامل معها والتدخل فيها كما يشاء، كما توفر القراءة في الحاسوب للمواد الفنية إمكانات عرض اللوحات والأعمال الفنية في متاحف العالم كله، وتساعد على التعامل معها والتدخل فيها بحرية واسعة، بالإضافة إلى رؤيتها في أبعادها المختلفة وألوانها المميزة وحجومها المتنوعة، وبإمكان القارئ في الحاسوب أن يدخل إلى متاحف العالم

ومخابره ومواقعه العلمية وإلى غرف العمليات وهو في بيته قاعد وراء الحاسوب.

وكذلك بإمكان القارئ في الحاسوب أن يستمع إلى كل ما هو مسجل من موسيقا وألحان وأغنيات وسيمفونيات، وأن يصغي إليها واضحة صافية دقيقة أكثر مما كانت توفره الأسطوانات أو أجهزة التسجيل مهما بلغت حساسيتها من الدقة والعلو، لأن برامج الحاسوب أكثر دقة.

ومن ناحية صحية، تعد القراءة في الحاسوب صحية، حيث توفر للقارئ الإضاءة الكافية، والجلسة الصحيحة وحجم الحرف المريح، فلا يضطر إلى نور باهر أو خافت، ولا إلى إمالة ظهره أو إحناء رأسه، بل يظل معتدل الجلسة مرفوع الرأس، ولا تختلف معه درجة الإضاءة، فلا تتغير الفتحة في حدقة العين، ولا تضطر العين إلى الانتقال من الأعلى إلى الأسفل، أو من سطر إلى سطر، إلا بقدر قليل، لأنه من الممكن تحريك الأسطر إلى الأسفل على سطح الحاسوب، ومما لاشك فيه أن هناك بعض المخاطر في الجلوس الطويل أمام الحاسوب، ولكن أكثرها يرجع إلى سوء استخدام الحاسوب والخطأ في التعامل معه، ولا ترجع إلى طبيعته. بل تبدو القراءة في الحاسوب أكثر سلامة من القراءة في كتاب في بعض الحالات، منها قراءة الكتاب في الفراش قبل النوم، والقراءة في الأريكة والقارئ مستلق على وجهه أو على قفاه، والقراءة في الحاسوب لا تبعث على الملل، ولا تجلب النعاس، لأن الإضاءة فيه جيدة، وثابتة، ولاسيما في الشاشات الحديثة المسطحة والمصفاة، حيث تقل فيها درجة التألق، والقراءة في الحاسوب مسلية وممتعة، فهي تثير الشعور بجمال التقنية الحضارية وتطورها، وبإمكان المرء وهو يقرأ في الحاسوب أن يستمع إلى ما يشاء من موسيقا في جهاز الحاسوب نفسه، ليطرد عنه أي شعور بالملل، بل لتغدو القراءة أكثر إمتاعاً. وبوساطة الحاسوب وعبر شبكة المعلومات والبريد الأثيري يستطيع القارئ التواصل مع القراء في كل بقاع العالم، وبإمكانه أن يتبادل معهم الكتب والمجلات والمقالات في أكبر قدر وأوسع مجال وأسرع وقت وأقل كلفة.

إن عشرات المواقع على شبكة المعلومات العالمية وربما المئات تنشر الآن آلاف الكتب، ولم يعد القارئ أو الكاتب يكتفي بالكتب التي تنشر في دور النشر مطبوعة على الورق في الشكل التقليدي للكتاب، وهذا ما يوفر للكاتب سرعة النشر وسهولته، وهو ما يوفر للقارئ أيضاً سرعة الحصول على الكتاب وسهولته، وأكثر تلك المواقع تفتح الكتاب للقراء من غير مقابل مادي، وبعضها - وهو الأقل - يطلب مبلغاً زهيداً، والكثير من الكتب تنشر مطبوعة في كتاب تتوافر أيضاً في مواقع على شبكة المعلومات العالمية. والقراءة في الحاسوب توفر للقارئ بوساطة برامج الترجمة الفورية إمكان ترجمة النص المقروء إلى

لغة أخرى مباشرة. والقراءة في الحاسوب ستجعل القراءة أكثر سرعة، إذ سوف يتمكن القارئ من قراءة عدد من الكلمات والصفحات أكثر مما يقرؤه في كتاب مطبوع، لأن الإضاءة كافية، ولأن تحريك الأسطر أسرع، ولأنه سيوفر على نفسه تقليب الصفحات، ولأنه يحس بصورة لا شعورية أنه يتعامل مع آلة، ولذلك سوف يقرأ أسرع مما يقرأ في كتاب، مثله مثل من يمشي ومن يركب سيارة، فمن يركب سيارة سوف يقودها بأسرع ما يستطيع، في حين أن من يمشي على قدميه يحس لا شعورياً أنه لا يستطيع أن يسرع أكثر مما يمكنه أن يسرع، في حين توفر له السيارة سرعات مختلفة. والقراءة في الحاسوب توفر للقارئ حداً أعلى من الصحة الإملائية والسلامة اللغوية، لأن الحاسوب يمتلك برنامج التصحيح الإملائي واللغوي والنحوي، وغالباً ما يقدم للقارئ نصاً تقل فيه نسبة الأخطاء.

ومن ميزات القراءة في الحاسوب أنه بإمكان القارئ أن يحمل معه حيثما ذهب بضعة أقراص صلبة أو مرنة، فإذا هو يحمل مكتبة من مئات الكتب بل من ألوف الكتب، ويستطيع أن يقرأها على أي حاسوب يصادفه، لدى صديق أو في مكتبة أو مقهى للحواسيب، ولا ننسى الحاسوب المحمول، وهو حاسوب كالحقيبة، فيه كل خصائص الحاسوب، ويستطيع المرء أن يحمله معه حيث حل أو ارتحل، ويستطيع أن يقرأ فيه وهو في مقعده من الطائرة أو القطار أو الحافلة، أو هو في مقعده في مقهى أو سريره في فندق، وعلى هذا الحاسوب نفسه وهو مسافر يستطيع أن يسترجع كل ملفاته، وأن يستعيد كل ما كتب أو قرأ، وأن يتصل مع كل من يود في العالم، وهو مسافر أو مرتحل، كأنه مستقر في مكانه لم يغادر موطنه.

والقراءة في الحاسوب سوف تجعل القارئ يدرك أنه ينتمي إلى حضارة معاصرة متطورة تتجاوز القرن العشرين وكل ما سبقه من قرون بما فيها من مكتشفات ومخترعات، فهو لا يقرأ في كتاب مصور، ولا في كتاب مطبوع، ولا في كتاب مخطوط، ولا في كتاب مرقوم على جلد غزال أو قطعة حجر أو طين أو فخار، بل إنه يتجاوز ذلك كله في قفزة نوعية متطورة، وفي هذا بحد ذاته متعة ليس بعدها متعة، وهو لا يقرأ مادة فحسب، بل يتواصل مع العالم كله، ويخرج من حدود الزمان والمكان، بفاعلية قوية، يقودها هو بنفسه، كأنه طيار يحلق بطائرة نفاثة، ويتحكم بمفاتيح تساعده على عبور القارات، وهذا ليس محض خيال، بل هو واقع وفعل. إن القارئ في الحاسوب يحقق ذاته، ويمارس فاعليته، ويتحرر من قيد المادة المكتوبة، والمنتهية، إلى مجال المادة المعرفية التي يمكن أن يتحاور معها، ويغير فيها كما يشاء. والقارئ على الحاسوب يتحرر من سيطرة المؤلف، فهو يتعامل مع نص ضوئي، ويستطيع أن يغير في حجمه

وشكله ونمطه كما يشاء، بل يستطيع أن يحذف منه ويضيف إليه كما يشاء، ويستطيع أن يحذفه أو يثبته، بتقانة عالية وسريعة، من غير أن يكلفه هذا الشيء الكثير، وهو بذلك يتحرر من سيطرة الكاتب ومن سيطرة النص. وثمة قيمة أخرى وهي أن القارئ يفعل هذا وهو يتحكم بمفاتيح قليلة بين يديه وهو في بيته أو في مكتبه أو هو مسافر في طائرة أو حافلة، وهو يحتسي القهوة أو الشاي ويدخن، ويأخذ ما يشاء من كتب، ومجلات، ويترك ما يشاء، وليس سجين مكتبة أو قاعة مطالعة وليس مقيداً بقوانين الإعارة أو أصول ارتياد المكتبات، وبين يديه أحدث الكتب وأقدمها، وبين يديه أقدم المجلات وأحدثها، وبين يديه المحظور من الكتب والممنوع والمصادر، بالإضافة طبعاً إلى المسموح. وثمة حاسوب فيه برنامج خاص بالمكفوفين، يستطيع المكفوف بوساطته أن يكتب عليه ما يريد كتابته، وأن يقرأ عليه ما يريد قراءته، وثمة برامج أخرى تجعل الحاسوب يقرأ النص المكتوب، أياً كان هذا النص، وهو ما يفيد الكفيف، ويفتح أمامه مجالات قراءة واسعة، وهو ما يمتع البصير، ويمكنه من سماع ما يود سماعه بدلاً من قراءته بالعين. وفي القراءة في الحاسوب ما يشجع على القراءة، ويغري بها، ولا سيما لدى الأطفال والناشئة والجيل الجديد، وثمة برامج متطورة تعلم الأطفال القراءة، وتشجعهم عليها بأساليب شائقة وممتعة.

ولعل وصف الجاحظ"توفي ٢٥٥هـ ٨٦٨م" للكتاب في العصر العباسي يصح لوصف الحاسوب في هذا العصر، وفيه يقول:"والكتاب وعاء مُلِئَ علماً، وظرف حشي ظَرْفاً، وإناء شحن مزاحاً وجِدَّاً، إن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من فوائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجَتْك مواعظُه، ومن لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسك فاتك، وببارد حار، ومتى رأيت بستاناً يُحْمَلُ في رُدْن"كُمُّ الثوبِ"، وروضة تُقَلُّ"تُحمل"في حِجْر"حضن"، وناطقاً ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، ولا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، ولا أقل جناية، ولا أقل إملالاً من كتاب، ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، ومن الإخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمع لك الكتاب". ولكأن الجاحظ وهو يصف الكتاب إنما يصف بديله لهذا اليوم وهو الحاسوب، ولا سيما المحمول.

ومما لاشك فيه أن هناك سلبيات في القراءة في الحاسوب، منها أن القارئ قد يضيع في خضم الكم الهائل من المواقع التي تنشر الكتب، وأمام الكم الهائل من

الأقراص المرنة والصلبة والمدمجة التي توفر للقارئ كتباً كثيرة، قد يحتاج إليها وقد لا يحتاج، وكذلك فإن النشر على الحاسوب أو في أقراص قد يساعد على السرقة وانتحال الكتب والمقالات، وهنا يضيع حق الناشر والمؤلف، ويختلط الزائف بالصحيح، وكذلك قد يساعد ذلك كله على سرعة التأليف والنشر، فيختلط الغث بالسمين، وقد يجعل الحاسوب من القارئ عليه في عزلة عن الناس والمجتمع ويبعده عن الواقع ومتغيراته، وقد يجر عليه الذهول والبلاهة إذا أفرط في العزلة عن الناس والتعلق بالحاسوب، ولعل من سلبيات الحاسوب أن كثيراً من المتعاملين معه يستخدمون فيه برامج الألعاب والتسلية، ويدخلون مواقع للجنس والإباحة.

ولكن يمكن القول: إن كل هذه السلبيات ليست مما يخص الحاسوب، وإنما يشترك فيها الحاسوب مع الكتاب، وهي سلبيات الكتاب نفسه قبل أن تكون سلبيات الحاسوب، وقد ظهرت كلها في عصور قديمة قبل عصر الطباعة، يوم كانت الكتب فيها تخط باليد، فكم من كتب سرقت، وكم من كتب نحلت لغير أصحابها، أو انتحلها المنتحلون لأنفسهم، وكم في دور الكتب من غث وسمين وصحيح وزائف، وكم من كتاب في السحر والشعوذة والأباطيل والجنس، وكم من قارئ ذهل عن نفسه، على نحو ما كان مع دون كيشوت الذي قاده انصرافه إلى قراءة كتب الفروسية وانعزاله عن الناس إلى توهم نفسه فارساً في وقت انقضى فيه عصر الفروسية. ومما لاشك فيه أن هناك مشكلات خاصة بالحاسوب، منها الفيروسات التي تمحو البرامج أو تدمر الحاسوب، ولكن هذا كله مما يمكن تداركه بوضع برامج متطورة تصد الفيروس وتمنع تدخله، وبحفظ الملفات على أقراص، وباستخدام حاسوبين أحدهما متصل بشبكة المعلومات العالمية وبالبريد الأثيري، وهو الحاسوب الذي يمكن أن يتسرب الفيروس إليه، وحاسوب آخر ليس فيه برامج البريد الأثيري ولا شبكة المعلومات العالمية، ومثل هذا الحاسوب المستقل لا يمكن أن يتسرب إليه الفيروس. ومثل تلك الحالات الخاصة بالحاسوب لها ما يشبهها من حالات خاصة بالكتب والمكتبات، فقد تحترق الكتب والمكتبة، أو قد تسرق، ويروي الكاتب الساخر إبراهيم عبد القادر المازني أنه دخل منزله مرة فوجد كتبه قد سرقت، فلم يحزن لأنه أدرك أن السارق لص مثقف وهو بحاجة إلى الكتب. ولعل في هذا ما يؤكد أخيراً أن القراءة في الحاسوب هي شكل جديد من القراءة، تقف إلى جانب القراءة في مادة مطبوعة على الورق، سواء في مجلة أو كتاب، ولا تلغي إحداهما الأخرى، ولا تتصارع معها، بل هما شكلان يتكاملان، ولا بد منهما معاً.

إن القراءة في الحاسوب سوف تحدث تغييراً في نمط القراءة وسرعتها وقوتها وعمقها، وسوف تقود هذه القراءة الجديدة إلى نمط جديد من التفكير

والتعامل مع النص، وستقود إلى نمط جديد من الكتابة، ولعل ملامح هذا النمط الجديد لم تتضح بعد، ولكنها سوف تبدو واضحة في القريب العاجل. إن القراءة في الحاسوب مرحلة جديدة في تاريخ الفكر البشري، أكثر تقدماً وتطوراً من مرحلة اختراع الطباعة، وإذا كان اختراع الطباعة قد يسر الكتب، وجعلها في متناول الجميع، وساعد على انتشار التعليم، وظهور الثقافة الموسوعية، فإن اختراع الحاسوب، سيجعل المعرفة أكثر انتشاراً، وأقرب منالاً، وسيحول العالم إلى قرية صغيرة، وسوف يساعد على سرعة القراءة، وتوفير المعلومات للجميع، وسيأتي بجديد لا يمكن توقعه.

وتبقى القيمة أخيراً للإنسان، الذي لابد له من القراءة، سواء في كتاب أو حاسوب، ليتواصل مع العالم، ويكتسب الخبرة والثقافة والمعرفة، وليؤكد بفعل القراءة إنسانيته.

من قضايا النشر الإلكتروني

يمثل النشر الإلكتروني ثورة علمية يمكن أن تغير مسار التاريخ في القرن الحادي والعشرين، إذ تجعل النشر سهلاً والاطلاع سهلاً، من خلال وضع المادة المقروءة في موقع إلكتروني يبقى إلى الأبد ويمكن قراءته في أي وقت، ويصبح ملكاً للجميع، أي إنها تحقق التواصل بين الأفراد والشعوب وتبادل العلوم والمعارف والتجارب والخبرات، بتكاليف أقل، وبغياب كبير للرقابة والسلطة، وبممارسة كبيرة للحرية بكل أشكالها وأبعادها.

وسوف تظهر نتائج إيجابية خلال السنوات القادمة، فسوف يتفجر كَمٌّ كبير من المعلومات والحقائق، وتصبح معظمها بين أيدي الناس وتحت أنظارهم في أي وقت شاؤوا، ليستثمروها ويستفيدوا منها، ولكن هناك مشكلات أخرى، ولاسيما في المواقع العربية، وهي نتاج واقع المجتمعات العربية ومشكلاتها وخصائصها المميزة، وسوف نجملها فيما يلي، وهي لا تخص مجتمعاً بعينه إنما تشمل المجتمعات العربية كلها:

١. ما تزال تكلفة الدخول إلى المواقع عالية بالنسبة إلى دخل المواطن، وليس في أي مجتمع عربي إنترنت مفتوح طوال اليوم مجاناً لمن يريد الدخول إليه كما هو الحال عليه في بعض الدول الأوربية.
٢. ما تزال نسبة المتعاملين مع الإنترنت محدودة جداً ولا تشكل سوى نسبة ٨% من السكان في الوطن العربي بسبب انتشار الأمية والفقر والبطالة.
٣. معظم المواقع العربية على الإنترنت مواقع أدب ودين وغناء وجنس، وقليلة جداً بل نادرة هي المواقع السياسية والعلمية.
٤. قلة عدد الشركات المخدّمة، وغالباً ما تكون شركات حكومية رسمية أو ليست حرة.
٥. قلة عدد مقاهي الإنترنت قياساً على عدد السكان وارتفاع أجرة التعامل معها.
٦. كثيراً ما تتدخل الرقابة في المجتمعات العربية فتحجب بعض المواقع وتمنع الدخول إليها.
٧. قد يبدو عدد الداخلين إلى أي موقع من المواقع كبيراً نسبياً وفق الإحصاء الإلكتروني، ولكن الدخول لا يعني بالضرورة القراءة والإفادة والممارسة، وغالباً ما يعني مجرد الاطلاع والتصفح السريع بعيداً عن القراءة والإفادة، بدليل غياب التعليقات المعمقة والنقد الجاد، وظهور تعليقات انطباعية سطحية سريعة وفي كثير من الحالات تكون سخيفة.

٨. غياب حق الملكية، وظهور فوضى إلكترونية، وأخذ بعض المواقع من بعضها الآخر من غير استئذان، مما يمكن أن يعد حرية وشيوعاً للمعرفة، ومما يمكن أن يعد أيضاً سرقة وضياعاً للحقوق.
٩. ضعف التقنية الفنية للمواقع، والافتقار إلى الدقة، وغياب التوثيق العلمي والتاريخي، والتوقيع الشخصي والاسمي، إذ لا يمكن أن تعد المواد المنشورة في المواقع الإلكترونية مصدراً بحثياً للدارس والباحث.
١٠. غياب التبادل للمعلومات وفق شبكة موحدة بين أقطار الوطن العربي.

ولكن على الرغم من كل ما تقدم، فإن النشر الإلكتروني سيبقى قفزة نوعية، قد توازي في أهميتها اختراع الأبجدية واختراع المطبعة، أو قد تكون أكبر منهما في الأهمية، ولعل أهمية النشر الإلكتروني تكمن في اتساع القاعدة الشعبية واتساع المادة العلمية، ومثل هذين البعدين لا قيمة لهما في ذاتهما إذا لم تتحولا إلى فعل وعمل، ومما لا شك فيه أن هذين البعدين سيقودان إلى فعل تغييري، ولكنه قد يحتاج إلى بعض الوقت، ومع ذلك فإن مسار التغيير لا يمكن تحديده، أو التنبؤ به، إذ يمكن في بعض الحالات توجيهه والسيطرة عليه، ولكن في كثير من الحالات لا يمكن ذلك، وهنا لابد من طرح تصور لمستقبل النشر الإلكتروني، وتقديم بعض الاقتراحات العامة التي تشمل الوطن العربي أيضاً ولا تخص قطراً بعينه، ومنها:

١. فتح الباب واسعاً أمام جميع الشركات المخدِّمة للإنترنت.
٢. تخفيض سعر الاشتراك في خدمة الإنترنت وأجرة الدخول إليه وجعلها مجانية.
٣. إلغاء الضرائب الجمركية على الحاسوب وكل ملحقاته ومعداته، وفتح الباب واسعاً أمام استيراده والعمل، على تصنيع بعض قطعه أو تجميعها في داخل الوطن العربي.
٤. إدخال الحاسوب والتعامل معه مقرراً درسياً في المراحل التعليمية كافة، وهو ما أخذت به بعض الدول العربية .
٥. إنشاء مواقع علمية متخصصة في العلوم البحتة، ومواقع للبحوث والدراسات الاستراتيجية
٦. توثيق المعلومات وتسجيلها باسم أصحابها، وحفظ حقوق المواقع أو السماح بالنقل والاقتباس في حدود، ووضع ضوابط وشروط من أجل الدقة والأمانة.

٧. تعميم الحواسيب على مؤسسات الدولة كلها، وجعله الوسيلة الأولى للتعامل والتواصل في داخل كل مؤسسة، من أجل تحقيق وعي إلكتروني وممارسة إلكترونية في الحياة، ومن أجل تحقيق الخطوة التالية.
٨. السعي سريعاً إلى حوسبة مؤسسات الدولة، أي ربط الوزارات والمؤسسات بشبكة داخلية تجعل التواصل بين مؤسسات الدولة ووزاراتها عبر الحاسوب، والسعي إلى إلغاء المادة الورقية أو الإقلال منها ما أمكن توفيراً للوقت والجهد والمال وتحقيقاً لسرعة العمل والإنجاز والتخلص من التراكم والتأخير.
٩. إنشاء مركز معلومات إلكتروني وطني في كل قطر من الأقطار العربية، وإنشاء مركز معلومات قومي وشبكة معلومات عربية تشمل أقطار الوطن العربي وتوحد فيما بينها على مستوى الحواسيب والمعلومات بحيث يمكن تبادل المعلومات عبر تلك الشبكة بين المؤسسات والوزارات والجامعات والدخول المفتوح إلى مواقع كل دولة وهو ما يحقق الوحدة العربية .
١٠. نهوض الدول العربية الغنية بتبني مشروع شبكة المعلومات، ودفع تبرعات خاصة لتعميم الحاسوب في الدول العربية الفقيرة، إلى جانب ما تقوم به من بناء الفنادق الفخمة وما تقوم به أيضاً من إنشاء قنوات فضائية .

إن المستقبل مفتوح أمام الحاسوب، وهو الذي سيفتح أبواب المستقبل، ولكن لا بد من التخطيط والبرمجة والعمل، ولا يمكن الركون إلى الزمن وحده، لأن الزمن يمر ويمضي، والقيمة للعمل في الزمن ولا يمكن أن يحقق العرب النهضة الصحيحة ما لم يدخلوا الدخول العلمي الصحيح إلى القرن الحادي والعشرين من خلال الحاسوب وشبكة المعلومات.

وحدة الثقافة العربية

مقدمة:

هناك من الأمور ما هو بدهي ولا يحتاج إلى الكلام عليه أو البرهان، ولكن يبدو الكلام في بعض الحالات ضرورياً على مثل تلك الأمور، ولا سيما حين يشكك فيها المشككون، وحين تكون هناك نقاط اختلاف كبيرة وكثيرة، ومن هذه الأمور البدهية: وحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي، وما يواجهه العرب من تحديات معاصرة، وما هو أمامهم من آفاق الغد والمستقبل، وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر من بداهة وبساطة فثمة نقاط اختلاف كبيرة وكثيرة حول هذه الأمور بين العرب والعرب أنفسهم، وبين العرب والآخرين، ولذلك من الممكن أن يبدو بعض ما سيقال هنا غير مقبول، ومن الممكن أن يبدو بعضه الآخر مقبولاً، وفي الحالتين تظل الأمور كلها نسبية، وقابلة للنقاش والحوار، ولعل القيمة الأولى للاختلاف لا للاتفاق، لأن الاختلاف يقدح الذهن، ويحرض على التفكير، ويجعل العقل ينشط، ومثل هذه الفعاليات الذهنية النشطة هي ما يقود إلى الجديد.

ثمة مخاطر كثيرة تواجه العرب، وكل خطر يبدو أشد خطورة من غيره، ولكنها في الواقع مجموعة مخاطر متفاعلة، ومنها ما هو قديم، ومنها جديد، أو متجدد، وغالباً ما يراد من الخطر الجديد أن يُنْسِيَ الخطر القديم. ومن الأخطار التي يواجهها العرب في القرن الحادي والعشرين الدعوة إلى اختلاف الثقافات بين قطر عربي وقطر عربي آخر، أو بين منطقة عربية وأخرى عربية، والمناداة بالخصوصية الإقليمية، والاختلاف في الثقافة، والمقصود بالثقافة المعنى العام الشامل للفنون والآداب والعادات والتقاليد وكل ما يشكل الوجدان والذوق، وأكثر ما يتضح ذلك في وسائل الإعلام وتكريسها الأغنية المحلية والمسلسل المحلي والعادات الشعبية، وكأن كل قطر من أقطار الوطن العربي يقع في قارة أخرى غير القارة التي يقع فيها القطر الآخر الشقيق أو المجاور، وكأن لغة هذا القطر العربي هي غير لغة القطر العربي الآخر، أو كأن عادات هذا القطر ليست عادات ذلك القطر، وهي في المحصلة متشابهة إن لم تكون واحدة، وإذا وجدت بعض الفروقات فهي الفروق التي تميز الأخ الشقيق عن الأخ الشقيق، مما يقتضيه تباعد المكان والزمان واختلاف الطبائع والأهواء.

ومما لاشك فيه أن مثل تلك الدعوات باطلة، وسوف تذهب في أدراج الرياح وسيطويها الزمن، ولكن لا بد من التصدي لها لتأكيد وحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي، وقد ظهرت من قبل دعوات انفصالية وإقليمية كثيرة ولكنها لم تصمد، ولم تحقق شيئاً، ولكن تركها من غير التنبيه عليها ومقاومتها

سيؤدي إلى رسوخها وفاعليتها، وكثيراً ما يكون للأكاذيب والأباطيل فاعلية وقدرة على التأثير أكثر مما يكون للحقائق.

ومن المؤسف أن تظهر مثل تلك الدعوات من جديد في الوطن العربي الواحد لتفكيكه وتجزيئه وتحويله إلى عالم خليط مختلف في شعوبه وثقافاته، في الوقت الذي تحقق فيه أوربة وحدة اقتصادية وثقافية، وهي ذات لغات وأعراق وأمم مختلفة، وفي الوقت الذي تظهر فيه دعوات كثيرة في العالم إلى العولمة والقول بأن العالم كله قد أصبح قرية واحدة، ومن المدهش أن بعض الأقطار العربية تدعو إلى مثل هذه العولمة، وترى نفسها جزءاً من المنظومة العالمية الافتراضية، وتنسى انتماءها إلى الأمة العربية، وتقول في الوقت نفسه بخصوصيتها الثقافية واختلافها عن ثقافة الأقطار العربية الأخرى، ولا تقول باختلافها عن ثقافة الأمم الأخرى.

مشكلة العامية والفصيحة:

ومن مظاهر هذا التشتت في بعض الدول العربية اعتماد لغة أجنبية كالفرنسية أو الإنكليزية في أسواق العمل وفي المصارف والفنادق وفي بعض مؤسسات الدولة وفي طلبات العمل والتوظيف في المؤسسات الثقافية نفسها وفي التدريس في الجامعات والمعاهد، ومما لا شك فيه أن العربي لا يعادي اللغات الأخرى ولا يرفض ثقافتها ولا يرفض تدريسها وتعليمها، بل يقدرها حق قدرها، ويسعى إلى تعلمها والإفادة من ثقافتها، ولكن لإغناء ثقافته ورفدها، لا لتكون بديلاً من ثقافته القومية.

ومن مظاهر هذا التشتت أيضاً اعتماد الحروف اللاتينية في كتابة الأسماء العربية فوق الملبوسات والمنتوجات الصناعية وفي لوحات الإعلان واتخاذها وسيلة لتأكيد الجودة والتميز، وجعلها مبعثاً على الثقة، أو للزينة والجمال، والأكثر إيلاماً من ذلك إطلاق أسماء أجنبية على المحلات والفنادق والمطاعم والبضائع والمنتوجات وكتابتها بالحروف اللاتينية وهي في كثير من الحالات مجرد كتابات لا دلالة لها ولا معنى أو خاطئة وكأن الحرف اللاتيني أصبح مصدر ثقة وجمال وزينة ودليل جودة، أو هي في بعض الحالات كلمات ذات دلالات فاسدة ومسيئة وربما بذيئة.

وقد يحتج بأن هذه مجرد عادات عابرة ولا تدل على موقف أو رؤية، وما هي إلا من صنع التجار الذين يريدون الترويج لبضاعتهم وبيعها وتحقيق الكسب، ولا يقصدون بها فكراً ولا ثقافة، ولا يعبرون بها عن رأي أو موقف، ولكن مع ذلك فإن ظهورها ووجودها بوصفها عادة ودعاية يرسخ في الوجدان أن ما هو غير عربي أفضل مما هو عربي، وأن المستورد أفضل من المصنع محلياً، وسرعان ما ينسحب هذا في الحياة اليومية، من غير أن يدري المرء، على

جوانب أخرى في الفكر والثقافة والأدب والفن، مثلما انسحب من قبل على الطعام والشراب واللباس، وهو ما يحقق بصورة عفوية غسل الدماغ وتفريغ الذات وطمس الهوية، مع الزمن، بصورة غير مباشرة، ولو كانت المواجهة مع الفكر والثقافة والأدب والفن مباشرة لحصلت ردة الفعل، ولكان الرفض والمقاومة، والتشبث بما يؤكد الهوية ويحمي الذات.

ومن المؤسف أن ينحدر العربي إلى هذا المستوى وينسى أن لغته هي لغة القرآن الكريم، وبها نزل كلام الله تعالى، وأن ينسى أنه مر وقت تعلمت فيه شعوب كثيرة في ظل الإسلام اللغة العربية، وبها كتبت علومها وأدبها وشعرها وأتقنتها أيما إتقان، بل بالحروف العربية كتبت تلك الشعوب لغتها وما يزال بعضها إلى اليوم يكتب بحروف عربية كاللغة الفارسية واللغة الأوردية في وقت بدأ فيه بعض العرب يتخلون شيئاً فشيئاً عن لغتهم.

يقول جبر ضومط (١٨٥٨ ـ ١٩٣٠) (١٩٢١) "كانت مدارس الأندلس العربية في إبان عزها بالنسبة إلى بلدان أوربة كمدارس أوربة وأمريكا اليوم إلى البلدان العربية في آسيا وإفريقية، وكانت اللغة العربية لغة العلم وعنها يترجمون" (كامل الخطيب، ص ١٩)، ولقد أنشأ الفونسو العالم (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤) مدرسة المترجمين في طليطلة، وكانت "تنقل عن التراث العربي كثيراً من الفلسفة والمنطق والطب والفلك والرياضيات والطبيعة" (الصالح، ٣٥٦).

ولدى العرب مقولة تتلخص في أن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، وقد وعد الله بحفظ القرآن الكريم، بقوله تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"(سورة الحِجْر ١٥ الآية ٩)، وقد استنتجوا من ذلك أن اللغة العربية محفوظة، ولكن هذا الحفظ ليس آلياً، ولا بد له من أمة تقوم به، وتعمل على تحقيقه، بالجد والعمل، وبإتقان العربية، وخدمتها، وتحقيقها في الواقع، كتابة وقراءة وثقافة وتعليماً، والنطق بها سليمة في المقام الأول، لأن علماء اللغة يعدون اللغة المنطوقة هي اللغة الحية، وهم يميزون بين اللغة والكلام، فالكلام هو الأساس في تأكيد أن اللغة تعيش في الواقع، ولا تكفي الكتابة بالعربية الفصيحة والنطق بها في المؤتمرات والمحافل لتأكيد أنها لغة على قيد الحياة.

ومما لاشك فيه أن الله عز وجل حافظ للذكر الحكيم، وأن العربية ستحفظ بحفظه، ولكن هذا لا يعني بالضرورة نهوض اللغة العربية أو قوتها أو قوة العرب أو نهوضهم، ولا بد لهم من العمل والجد لتحقيق النهوض. ومن الممكن أن يكون هذا الحفظ للذكر الحكيم بأشكال مختلفة، فقد يكون محفوظاً بالعربية الفصيحة لدى أقوام ليسوا عرباً، ولا يعرفون العربية إلا في تلاوة القرآن الكريم، ثم هم بعد ذلك يفهمونه ويدرسونه ويفسرونه وينشئون عليه دراسات كثيرة بلغتهم، وقد يكون محفوظاً بالعربية وعند العرب أنفسهم، ولكنهم أميون متخلفون

لا يقدمون جديداً ولا يشاركون في النهضة، تطغى عليهم العاميات ولا يعرفون من الفصيحة إلا لغة القرآن الكريم، ولا يستخدمونها إلا في المساجد للخطب والصلاة، مثلهم مثل الأمم الأخرى، بل أقل، وهذا ما يريده أعداء العرب واللغة العربية، بل هذا ما يقولونه اليوم، إذ يزعمون أن العربية في الوقت الراهن محصورة في المساجد، وأن العرب في أقطارهم العربية لا يتكلمون العربية، وإنما يتكلمون لهجات مختلفة، وأن بعضهم لا يفهم كلام بعضهم الآخر.

وفي كثير من جامعات العالم تقوم بحوث ودراسات على اللهجات المحلية في هذا القطر العربي أو ذاك، بل في هذه البلدة أو تلك المنطقة من القطر الواحد، لترسيخ اللهجات، وتأكيد التفرق، ومن المؤسف أن كثيراً ممن يقومون بهذه الدراسات هم من العرب أنفسهم، ويفرحون إذ يسهل عليهم البحث والجمع والدرس، وسرعان ما ينالون الشهادة العلمية، من غير أن تضيف إلى رصيدهم المعرفي شيئاً، ويعودون إلى وطنهم وقد رسخ في ثقافتهم مفهوم اللهجة، وهم يقدمون لأعداء العربية خدمات لا يقدرون مخاطرها.

ويخطئ بعض المثقفين في فهم العولمة، وهم يظنون أنها تعني وحدة شعوب العالم، وأن يصبح العالم قرية واحدة، مما يعني ـ وفق تصورهم ـ إلغاء المسافات والفوارق بين شعوب العالم، وتحقيق العدالة والمساواة، والحقيقة ليست كذلك، فالعولمة تعني أولاً هيمنة نموذج اقتصادي واحد على العالم، عبر الشركات المتعددة الجنسيات، وسيطرة رؤوس الأموال الفردية بشرائها شركات الخدمات العامة كالمواصلات والاتصالات، وهو ما يدعى بالخصخصة أو الاقتصاد المفتوح، وهو شكل آخر من أشكال النظام الرأسمالي، أو النظام الاقتصادي الحر، وهو من غير شك النموذج الأمريكي، الذي يسعى إلى فرض نفسه تحت أشكال مختلفة، هذا هو الجانب الاقتصادي للعولمة، أما الجانب الثقافي فهو سيطرة النموذج الثقافي الواحد، وهو النموذج الأمريكي، الذي يسعى إلغاء ثقافات الشعوب، ومحو هويتها الثقافية في ظل النظام العالمي الجديد، وهو ما يفرح به بعض المثقفين ويروجون له ويظنون أنه يعني الحرية والديمقراطية، في حين لا يعني في الواقع سوى سيطرة الثقافة الأمريكية، وهو ما يتنافى مع طبيعة الشعوب التي تسعى دائماً إلى الحفاظ على شخصيتها وتأكيد هويتها، وما يتنافى مع حقائق التاريخ التي أكدت حرص الشعوب دائماً على تميزها، ورفضها الذوبان في ثقافة أخرى، وهذا ما تؤكده التجربة الفرنسية في الجزائر، فقد احتلت فرنسا الجزائر مئة وخمسين عاماً وحاولت أن تنسي الشعب العربي لغته ودينه، ولكنها لم تفلح، واستطاع الشعب العربي في الجزائر أن يسترد حريته السياسية وأن يستعيد هويته الثقافية.

ومن الطريف أيضاً أن يدعو بعض المثقفين العرب إلى عولمة عربية، وهي دعوة قوامها في الواقع التقليد لكل ظاهرة عند الغرب، ومثل هذه الدعوة في الواقع تفقد قيمتها بعد أن يعرف المرء معنى العولمة، ولا سيما ما تتضمنه من معنى الجبر والاضطرار والقهر والسيطرة، إن ما يحتاج إليه العرب هو تحقيق وحدة ثقافية عربية، وهي حرية واختيار، بل هي حاجة عربية.

أمثلة على وحدة الثقافة العربي:

وثمة أمثلة كثيرة على وحدة الثقافة العربية، ومنها: صحف ومجلات تطبع في هذه الدولة أو تلك من الدول العربية وتوزع في سائر الدول العربية، وتلقى الإقبال عليها أكثر مما قد تلقاه في البلد الذي طبعت فيه، ومن الممكن ذكر عشرات من الصحف والمجلات في هذا السياق، ولكن يخشى أن يظن ذكرها هو محاولة لترويجها، مع أنها في الحقيقة رائجة وليست بحاجة إلى ترويج. وهذا المثال لا يدل على وحدة اللغة فحسب، بل يدل على وحدة الهم والهدف والاهتمام، فحين يطالع عربي في المشرق العربي صحيفة في المغرب العربي فهذا يعني أنه مهتم بأمور المغرب العربي وبقضاياه وأنه يتابعها، لأنها جزء من هموم أمته العربية.

ومن الأمثلة على وحدة الثقافة العربية عمل كثير من المدرسين والأساتذة الجامعيين من هذا القطر أو من ذاك في أقطار عربية أخرى، والأمر لا يتعلق بمجرد العلم أو الاختصاص، إنما يتعلق بقدرته على الانسجام مع المجتمع في القطر الذي يعمل فيه، وهو يصطحب زوجته وأولاده، وهؤلاء يتعلمون ويدرسون في هذا القطر، ويقيمون علاقات مع المجتمع، مما يؤكد وحدة الشعب العربي.

ومن الأمثلة رواية وليمة لأعشاب البحر، فهي لكاتب سوري، وحوادثها تدور في الجزائر، وموضوعها الجزائر، وقد راجت الرواية في مصر، وفيها جوبهت بالاتهام والرفض وأثارت من الضجة ما لم تثره في سورية أو الجزائر. ومن الأمثلة على وحدة الثقافة العربية المسابقات والجوائز العربية، ومنه على سبيل المثال مسابقة الملك فهد والسلطان عويس ومسابقة نجيب محفوظ في مصر وأبي القاسم الشابي في تونس ومسابقة ديوان العرب الفضائية، وغيرها كثير، وهي تقام هنا أو هناك في هذا القطر أو ذاك من أقطار الوطن العربي ويفوز بها أدباء من الأقطار العربية كلها. وكثير من دور النشر العربية تعمل في هذا القطر العربي أو ذاك، ولكن مبيعاتها في أقطار الوطن العربي كله، ولبعض دور النشر الفضل في نشر الثقافة العربية في أقطار الوطن العربي كافة.

وللفضائيات دورها، فهي توحد الثقافة العربية، وتؤكد وحدتها، على الرغم مما يؤخذ من أخطاء على كثير منها، والأمر نفسه يقال بالنسبة إلى الشابكة أو

الشبكة العالمية، فيها يلتقي أبناء الوطن العربي حيثما كانوا في العالم، وهناك مواقع أصبحت ذات دور معرفي في الوطن العربي مثل موقع القصة العربية وموقع المترجمين العرب وموقع ديوان العرب وموقع الإبداع العربي، وغير ذلك كثير، مما يدل على وحدة الثقافة العربية، هذه أمثلة تدل على واقع، وليست مجرد حالات فردية، بل هي ظواهر شاملة، ذات حضور فاعل.

بالإضافة إلى ما هنالك من مؤسسات رسمية أو شبه رسمية مثل اتحاد الكتاب العرب الأمانة العامة الذي يضم كل روابط الكتاب العرب واتحادات الكتاب العرب، وكذلك اتحاد الجامعات العربية والمنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم ومركز التعريب ومقره في المغرب العربي وله فروع في أرجاء الوطن العربي ومجامع اللغة العربية وإلى ما هنالك من اتحادات عربية كاتحاد الصحفيين العرب واتحاد المحامين العرب واتحاد العمال العرب واتحاد البرلمانيين العرب وبالإضافة إلى جامعة الدول العربية بمنظماتها الثقافية المتنوعة.

ولكن هذا كله لا يجعل المرء ينسى التحديات في الماضي والحاضر ، ولقد كانت التحديات السابقة ظاهرة ومباشرة كالدعوة إلى كتابة العربية بحروف لاتينية وكالدعوة إلى العامية، وقد جوبهت بالردود وشغلت التفكير العربي طويلاً، والتحديات اليوم غير مباشرة، وهي مبطنة كالدعوة إلى الديمقراطية والعولمة، وإلى دراسة العاميات، أو اللغة المحكية، أو تشجيع الأغنية المحلية والمسلسل المحلي والشعر باللغة المحكية، وكثيراً ما تتبنى بعض الأنظمة العربية مثل هذه الدعوات لأن فيها خدمة لها، وتساعدها على ذلك وسائل الإعلام، ولا سيما المرئية، فهي في معظم الأقطار العربية جزء من النظام الحاكم، وهي بيده، تطوعه لمصلحتها وتسوقه إلى حيث يحقق أهدافها، والناس من مثقفين وغير مثقفين يعيشون في جواء تلك المؤسسات ويفكرون وفق نسقها، وهم لا يدرون، ويصاغ نمط تفكيرهم وفق النمط الذي بنيت عليه المؤسسات الثقافية والإعلامية، وهي مؤسسات تسير وفق أنظمة وقوانين ولوائح داخلية صيغت في معظمها وفق ما يخدم الأنظمة الحاكمة لا وفق ما يحقق حرية التعبير والإبداع، وفي كثير من الحالات ما يدافع المثقف نفسه عما استقر من قانون المؤسسة أو نظامها ولا يريد له التغيير أو التعديل،ويتمسك به أشد التمسك، لأنه اطمأن إليه وارتاح، ولا يريد التغيير، أو لأنه لا يعي الأخطاء وهو الناظر من الداخل ولا يملك النظرة الموضوعية من الخارج، أو لأنه مستفيد منتفع، وأي تغيير سيحرمه موقعه.

إن ظهور اللهجات قانون عام ينطبق على لغات العالم كافة، وما من لغة في العالم إلا وفيها لهجات، وما من لغة في العالم إلا ويصعب فهم نصوص القديمة، حتى النصوص التي تعود إلى ما قبل مئتي عام، فلغة شكسبير وقد توفي

عام ١٦١٦ لا يعرفها اليوم المثقف الإنكليزي، بل إن كثيراً من بلاد العالم ليس فيها لغة واحدة سائدة، بل فيها عدة لغات، و"يوجد مثل هذا التنوع في اللهجات واللكنات الإنجليزية إذ يظهر الأطلس اللغوي لإنجلترا The Linguistic Atlas of England وأطلس الأصوات الإنجليزية Atlas of English Sounds المبنيان على أساس مسح اللهجات الإنجليزية توزُّعِ عدد من البدائل الجغرافية المألوفة في اللهجات الإنجليزية" (دورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ص ٩٢٧). "وضمن فرنسا نفسها فإن الفرنسية القياسية هي اللغة الوحيدة التي منحت اعترافاً رسمياً كاملاً، غير أنها ليست اللغة الأولى أو الوحيدة بالنسبة لمجموعة كبيرة من السكان، إذ نجد أشكالاً من اللغة الهولندية في الفالندرز الفرنسية وأشكالاً من الألمانية في الألزاس وشمال اللورين، وينطق بالبريتانية في غرب بريتاني (شمال غرب فرنسا)، وتستعمل لغة الباسك في غرب باريرينز(جنوب غرب فرنسا)، وتستعمل الكاتلان في روزيلون(جنوب فرنسا)، وفي قسم كبير من جنوب فرنسا يشار إلى اللهجات الأصلية عادة على أنها بروفنسالية" (دورل، مارتن، الموسوعة اللغوية، ص٩٢٢) ومع ذلك تظل اللغة القومية والرسمية لفرنسا هي اللغة الفرنسية، وفي الوقت نفسه تشجع فرنسا البربر في الجزائر على الاستقلال الثقافي على الأقل وتدعوهم إلى التمسك بلغتهم الأمازيغية مع أن كثيراً من الدراسات تذهب إلى أن الأمازيغية هي لهجة عربية فصيحة، فلقد انتهى البحث بالدكتور علي فهمي خشيم إلى أن اللغة الأمازيغية "ليست إلا واحدة من اللغات أو اللهجات التي نسميها اللغات العروبية التي تشمل لغات الوطن العربي القديمة في الرافدين والشام ووادي النيل والشمال الإفريقي" (خشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص هـ) كما انتهى به البحث إلى وضع معجم عربي بربري مقارن "الهدف منه تأثيل المفردات الأمازيغية البربرية وتأصيلها وإعادتها إلى أرومتها العربية الأولى" (خشيم، لسان العرب الأمازيغ، ص.أ).

ومن المؤسف أن يروج كثير من الأدباء والمثقفين للعامية، عن وعي وقصد وسوء نية، أو عن عفوية وبراءة وحسن نية، ولا سيما حين يتكلمون على الواقعية في الأدب، ويدعون إلى الشعر العامي كي يفهمه الناس، أو كتابة الحوار في المسرح بالعامية، أو كتابة الحوار على الأقل في الرواية والقصة بالعامية بدعوى الواقعية، مع أن الواقعية لا تعني التصوير المباشر للواقع ولا النقل الآلي، وإنما تعني تصوير الواقع فنياً، ولا بد في الفن من حرفية، ولا بد من وسيلة فنية خاصة، ودعوى الوصول إلى العامة دعوى غير سليمة، إذ بأي عامية سيكتب الأديب؟ هل سيكتب بعامية القاهرة أو بعامية تونس أو بعامية دمشق؟ وهل سيكتب بعامية حي الزمالك ومصر الجديدة في القاهرة أو بعامية حي سفط اللبن؟ وهل سيكتب بعامية النصف الأول من القرن العشرين؟ أو بعامية النصف الثاني

منـه؟ أو بعاميـة القرن الحـادي والعشرين؟؟ إن العاميـة ظـاهرة متحركـة وليست مستقرة، وهـي اليـوم ليست كمـا كانـت عليـه بـالأمس، وهـي فقيـرة بموادهـا فـي ألفاظها ودلالاتها وفي بناها وتراكيبها، وما يتوهمه بعض الناس من إيحاءات لها ودلالات هي عابرة ومؤقتة، فما توحيه كلمات حنطور وكارو وأتومبيل وأنتريك وكركون وجندرمة لجيل النصف الأول من القرن العشرين لا توحي بشيء من مثله لجيل القرن الحادي والعشرين، بل هذا الجيل لا يفهم منها شيئاً.

والواقعية في الأدب لا تعني نقل الواقع كما هو، فمثل هذا الفهم هو تشويه للواقعية، وإنما تعني تصوير الأنموذجي الذي يمثل الواقع، أي المثال الذي يمكن أن يقع، وليس الذي قد وقع فعلاً، إن سقوط طفل من الطابق الخامس وعدم إصابته بأذى، هو حادث قد وقع فعلاً، ويمكن أن تنقله الصحف، ولكنه حادث فردي، لم يتكرر، ولا يمكن أن يتكرر، فما هو بالحدث الواقعي، إنما هو حدث استثنائي، أما الواقعي فهو ما وقع، وما يمكن أن يقع، ويتكرر، وتصوير الحدث المتكرر الغالب الوقوع هو ما يجعل العمل واقعياً، وهذا التصوير لا بد فيه من الانتقاء والاختيار والصياغة الفنية، إن الحوار في الرواية والقصة والمسرحية هو حوار فني، مكثف مركز، يعبر عن الشخصية، وهو يصاغ بعناية، وبلغة فنية، ليست العامية، وليست الفصحى الراقية المتكلفة، وإذا ما سجل المرء بوساطة جهاز تسجيل أي حوار في الشارع بين متخاصمين أو بين بائعين أو بين عاشقين لا يمكن أن يصبح كما هو عليه حواراً فنياً، ولا يمكن أن يكون جزءاً من قصة أو رواية أو مسرحية، والأديب في الحالات كلها لا يكتب للأميين، إنما يكتب لمن يجيد القراءة على الأقل، وهو مسؤول عن تزويد القراء بلغة فنية، تنمي شعورهم، وتقدح أفكارهم، وتصقل لغتهم وتهذبها. وهنا يمكن أن نميز بين العربية الفصحى، ويمكن أن نخص بها المستوى الراقي في القرآن الكريم، وفي الشعر العربي القديم، واللغة العربية الفصيحة، ويمكن أن تطلق على لغة الصحف والمجلات والكتب ووسائل الإعلام.

إن وجود العاميات لا بد منه لأنه قانون عام، ولا يمكن بحال من الأحوال إلغاء اللهجات العامية، وما العامية في الحقيقة إلا العربية الفصيحة في أدائها اليومي العادي، فالعامية هي بنت الفصيحة، فالفصيحة تقوم على الإعراب بتحريك أواخر الكلمات، والعامية تقوم على تسكينها، والفصيحة تقوم على الأداء الفصيح الهادئ الذي يعطي كل حرف حقه في النطق، فيخرجه من مخرجه الصحيح، والعامية تقوم على الأداء السريع الذي قد يغير في مواقع الحروف أو يستبدل بعضها ببعضها الآخر ولا يخرجها بصورة عامة من مخارجها الصحيحة، ولذلك لا بد من وجود العامية، ووجودها لا يفرق العرب، ولا يضرهم في شيء، مادامت العاميات في سياق الحياة اليومية، ولكن الضرر كل الضرر

حين تتحول العاميات إلى لغة الثقافة في الصحافة والإذاعة والتلفاز والتعليم والأدب، وعندئذ تخلق بيئات متنافرة، وتصنع ثقافات متمايزة، وعندئذ تفرق العرب بعضهم عن بعضهم الآخر.

أمثلة على وحدة الشعب العربي:

ومما يؤكد وحدة الشعب العربي الاتجاهات والتيارات الفكرية والأدبية في أقطار الوطن العربي، فقد كانت في معظمها متشابهة ومتزامنة في نشوئها ونهوضها وضعفها وفي تحولاتها، وتكفي الإشارة إلى التيارين الوجودي والاشتراكي في الثقافة العربية فقد شهدا معاً الانتشار والازدهار في الخمسينيات في معظم الأقطار العربية، وفي السبعينيات انتشرت البنيوية ثم سرعان ما انتشرت الدراسات الأسلوبية واللغوية، وظهرت الحداثة الشعرية في العراق وسرعان ما امتدت إلى القاهرة وبيروت ودمشق والمغرب العربي.

إن انتشار أي ظاهرة في أي قطر عربي سرعان ما يرافقها انتشار الظاهرة نفسها في معظم أقطار الوطن العربي، سواء في الفن أو الأدب أو الفكر، على الرغم من التنوع والتعدد والاختلاف، بل على الرغم من المعارضة وعدم الاتفاق، سواء ظهر في بيروت أو دمشق أو القاهرة أو الكويت أو تونس أو الرباط أو الرياض، والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي كل مكان من أقطار الوطن العربي حضور لشواهد من أقطار عربية مختلفة، ومن الممكن أن يذكر في السياق الثقافي والفكري والأدبي أسماء كثيرة لم يعد أحد منها ملكاً للقطر الذي ظهر فيه، بل أصبحت تلك الأسماء ملكاً لكل الأقطار العربية، وهي معروفة فيها جميعاً، ومنها في مجال الرواية فقط الطاهر وطار وواسيني الأعرج من الجزائر، وإبراهيم الكوني من ليبيا، ونجيب محفوظ من مصر، والطيب الصالح من السودان، وغالب هلسا من الأردن، وحنا مينة من سورية، وسهيل إدريس من لبنان، وعبد الرحمن منيف من العراق، وغازي القصيبي من السعودية، وليلى العثمان من الكويت، ومثل تلك الأسماء وغيرها كثير في عالم الأدب والفن والموسيقا والشعر والغناء، أصبحت كلها ملك العرب جميعاً، وأصحاب تلك الأسماء هم صناع الثقافة العربية، وفي كل قطر من أقطار الوطن العربي هم معروفون جيداً، وغيرهم كثير ممن هم معروفون، وهم جميعاً من عناصر الوحدة العربية وقواها الفاعلة.

ومما يؤكد وحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي تشابه الأحزاب وأنظمة الحكم وتشابه أشكال المعارضة في معظم أقطار الوطن العربي، وكل ما طرأ على معظم أقطار الوطن العربي من تقلبات وصراعات وثورات وانقلابات ومشكلات داخلية وأزمات اقتصادية وسياسية كان في كثير من الأحيان متشابهاً بل يكاد يكون متزامناً، وفي هذا ما يؤكد وحدة الشعب العربي ووحدة الثقافة

العربية ووحدة الظروف، ولعل من الطريف أنه مما يؤكد ذلك أيضاً تشابه المؤامرات التي حيكت لمعظم الأقطار العربية، وتزامنها، وتشابه معظم أشكال التدخل الخارجي المباشر وغير المباشر.

ومن الممكن بعد ذلك الإشارة إلى أشكال من الوحدة المباشرة، ومنها مشاركة الجيوش العربية في حرب تحرير القدس عام ١٩٤٨، ومشاركة الجيوش العربية في حرب تشرين عام ١٩٧٣، ومنها أيضاً الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، واتحاد دول الخليج، وغيرها من أشكال الاتحاد أو الوحدة، على الرغم مما يعتريها من إحباط أو إخفاق، وهذا أمر طبيعي في وجود المؤامرات والتحديات الخارجية.

إن الصورة ليست حالكة، بل هي متألقة، ولا سيما حين نذكر عوامل الوحدة، فهي بين ظهرانينا، وهي قائمة ومتحققة، ولكننا ننساها، أو نطمح إلى ما هو أكثر منها، وحسبنا هي، ولا يمكن أن نفكر في الوحدة السياسية، على الأقل في الظروف الراهنة، ولكننا نتطلع إلى تعاون أكبر، ولقاء أكبر، نتطلع إلى زيادة في المواصلات والاتصالات، إلى خطوط نقل بحرية وجوية وأرضية تساعد الأشقاء العرب إلى تواصل أكبر، من غير عقبات ولا حدود ولا تأشيرات دخول أو خروج ولا جوازات سفر، ومن قبل في مطلع القرن العشرين كان العثمانيون قد ربطوا اسطنبول بمكة بخط حديدي عبر سورية والأردن، وقد امتد إلى بغداد في العراق، وإلى طرابلس في لبنان، وإن مد مثل هذا الخط بين أقطار الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين ليس بأصعب مما كان عليه في مطلع القرن العشرين، وإذا كان من السهل لقاء وزراء الداخلية العرب لوضع خطط التعاون لضبط الجريمة أو قمع الإرهاب فإنه من الأسهل لوزراء التربية والتعليم العالي والثقافة والنقل والمواصلات اللقاء من أجل تعاون أكبر.

التخلف هو الخطر الأكبر:

إن الخطر الذي يتهدد الشعب العربي هو خطر دائم ومتجدد على مر العصور، ولا يتمثل في اللهجات العامية، فهي أمر واقع لا بد منه، ولا في كتابة العربية بحروف لا تينية، فهذا أمر لن يكون، ولا في انقراض العربية أو موتها، فهذا لا يمكن أن يتحقق، لأن الله وعد بحفظ الذكر الحكيم، واللغة العربية محفوظة بحفظه، ولأن العربية يتكلم بها أكثر من ثلاثمئة مليون نسمة، وبها يبدعون وينتجون علماً وأدباً، ولا يتمثل في تفرق العرب وتمزقهم وعدم قيام دولة الوحدة، لأن دولة الوحدة لا يمكن أن تقوم في الوقت الراهن على الأقل، إن هذه المخاطر كلها هي أخطار قائمة وموجودة، ولكن أكثرها جانبي، وللإشغال أكثر مما هو للتحقق، هي مخاطر تقود إلى تحقيق الخطر الأساسي وهو بقاء العرب متخلفين، وبقاؤهم سوقاً للبضائع، ويداً عاملة رخيصة، وحقل تجارب، وبقاء منطقتهم

مورداً للخيرات ومصادر ثروات متعددة لا نفاد لها، طبيعية وبشرية، من نفط إلى ذهب إلى فوسفات إلى طاقة شمسية، ومن يد عاملة إلى عقول مبدعة، وليظلوا متخلفين، لا دور لهم في صنع الحضارة، ولا دور تاريخياً لهم، ولذلك يتم على الفور إحباط أي مشروع نهضوي، أياً كان شكله أو فكره أو انتماؤه، إن الهدف ألا يعيد العرب أمجاد التاريخ، وألا يكون لهم مستقبل.

والطريق إلى إبقاء العرب متخلفين هي عزلهم عن لغتهم ودينهم وزرع الشقاق فيما بينهم وإبقاؤهم ممزقين وإشغالهم بمشكلة العامية والحروف اللاتينية وإثارة مشكلة القوميات والأمم الأخرى والثقافات الإثنية والخلافات الدينية والطائفية، وهي مشكلات موجودة في كل مكان في العالم، في فرنسا وإنكلترة وأمريكا وفي الصين والهند، وما من دولة تقوم على لغة واحدة أو شعب واحد أو عرق واحد أو دين واحد أو مذهب واحد، ولابد من التعدد والتنوع والاختلاف، ولكن قوة الدولة وتقدمها وحضارتها ورقيها تجعل تلك المشكلات غير فاعلة، لأن الهدف هو الوطن والمواطن، وحق المواطنة للجميع، وتقوى تلك المشكلات وتظهر في حال الضعف والتخلف.

إن مواجهة العرب للمخاطر لا يمكن أن تكون بالحرب والسلاح، إنما يمكن أن تكون بالحرية والعلم، وأول خطوة على العرب اتخاذها هي التعليم، لابد من إصلاح التعليم، ورصد ميزانية كبيرة له، أكبر من ميزانية التسلح، ولذلك لا بد من النهوض بالعربية، والنهوض بها لا يكون من سبيل واحدة، كعقد الندوات والمؤتمرات، وإنشاء المجامع وسن القوانين، أو تغيير كتب التعليم بين عام وعام، أو الدعوة إلى تبسيط العربية وتسهيلها بحجة الصعوبة، فهذه السبل وحدها غير كافية، لا بد للنهوض من حافز اقتصادي، لأن هذا العصر هو عصر الاقتصاد، ومن خلال الاقتصاد من الممكن تغيير مفهومات كثيرة.

ولا بد أن يشمل هذا الإصلاح المؤسسة التعليمية بمستوياتها وعناصرها ومكوناتها كافة، من التلميذ في الصف إلى المعلم، ومن التعليم الابتدائي إلى آخر مراحل التعليم العالي، ومن البناء الحجري إلى الكتاب والحاسوب، ومن الإدارة إلى الخدمات، ومن وسيلة انتقال الطالب إلى صحته ومعيشته، إن كل مؤتمرات تطوير التعليم تقف عند المناهج والكتب، وتنسى الإنسان، لا بد أن يحظى المعلم بالمكانة الاجتماعية والمعيشية اللائقة، ليتمكن من العطاء، وليكون قدوة ومثالاً، ولا يكون هزأة، فالمعلم هو الذي يبني الإنسان، وهو الذي يصنع شرائح المجتمع كافة، من العامل والأجير إلى العالم المختص والوزير، والمعلم هو الذي يحفظ القيم الدينية والخلقية والوطنية والقومية وينقلها من جيل إلى جيل، والمقصود بالمعلم المعلم في المستويات كافة من أدنى مراحل التعليم إلى أعلاها.

إن الدعوة إلى نهوض الأمة لا يمكن أن يكون بالعامية ولا بحروف لا تينية، وإنما يكون بالاهتمام بالتعليم والنهوض باللغة الأم، ويؤكد ذلك أنه "عندما أطلقت روسيا القمر الصناعي عام ١٩٧٥ اهتزت الأوساط التربوية في أمريكا، وتساءلوا عن السبب الذي جعل الروس يتفوقون عليهم في هذا المجال، وجاءت الدراسات تشير إلى أن السبب في ذلك يرجع إلى إخفاق المدرسة الأمريكية في تعليم الناشئة القراءة الجيدة، ورفع أحد المسؤولين التربويين شعاراً هو: حق كل طفل في أن يكون قارئاً جيداً في السبعينات" (السيد، ص ٣٢٨)

إن العلم هو الذي سيفتح أمام العرب أبواب المستقبل، ولم يعد بإمكان أي شعب من شعوب العالم الانتماء إلى الحضارة والمشاركة فيها من غير العلم، فمن الممكن بالمال شراء السيارة والحاسوب والقمر الفضائي والآلة الحربية المتطورة، ولكن شراءها بالمال يعني أن يصبح المرء عبداً لها، وأن تصبح البلاد التي تشتريها خاضعة للبلاد التي تنتجها، وتابعة لها، وبذلك تظل البلاد التي تشتريها متخلفة، وهذا ما يراد للوطن العربي، ولا يمكن التعامل مع آلات الحضارة ووسائلها التعامل الصحيح إلا بالعلم، وهذا العلم سيساعد على إنتاجها بدلاً من شرائها، أو إنتاج ما تحتاج إليه الدول المنتجة لها، للتبادل معها، على أساس من القوة لا على أساس من الضعف. إن العلم اليوم حاجة أساسية لكل مواطن، سواء في ذلك العامل والفلاح، والموظف والتاجر، لأن على الجميع أن يتعاملوا مع أدوات الحضارة ووسائلها التقنية المتعددة والمتطورة، ولم يعد في الإمكان الاعتماد على الطبيعة من غير تدخل علمي فيها، ولا على المهارة الشخصية من غير علم وقدرة على التعامل مع أدوات الحضارة. والعلم هو الذي سينتج جيلاً جديداً يبني مستقبلاً جديداً للعرب، وهو الذي سيساعد على الاستفادة من الثروات والموارد في الأقطار العربية، وسيساعد على تحقيق اللقاء بين الأشقاء العرب، وتحقيق الوحدة العربية في شكل يصوغه المستقبل وفق معطيات جديدة لا يمكن التنبؤ بها.

ولعل أخطر ما يواجه العرب مباشرة في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين هو تهمة الإرهاب والأصولية، وكانت نتيجة هذه التهمة الإساءة إلى الإسلام والعروبة معاً، فأصبح كل عربي متهماً، كما أصبح كل مسلم متهماً، وهذه التهمة في الحقيقة هي شكل آخر من الأشكال المستغلة لإبقاء العرب في حالة من التخلف والقلق وعدم الاستقرار، ولم يتفق العالم إلى اليوم على تحديد مصطلحات من مثل الديمقراطية أو العولمة أو الإرهاب أو العنف أو المقاومة أو حرب التحرير، ولا يراد لأي مصطلح سياسي أن يحدد معناه، بل يراد أن يظل معناه غامضاً، ليستخدم في وقت ما ومكان ما وفق المعنى المناسب الذي يحقق مصلحة من يستعمله.

ولعل من أهم الطرق في معالجة هذه التهمة العلم، وذلك بتعريف العالم كله بحقائق الإسلام وقيمه، وبتاريخ العرب وأخلاقهم، ولا يكون نشر هذا العلم إلا بأساليب وطرق علمية تساعد على إقناع الآخر وتمكن من إيصال المعرفة إليه، عبر قنوات ووسائل معاصرة، من فضائيات وكتب ودوريات تترجم إلى مختلف لغات العالم، وبعثات ثقافية، ودعوات لطلاب من مختلف بلاد العلم لزيارة الوطن العربي، والإقامة فيه، وتقديم المنح الدراسية للأجانب لدراسة العربية في الوطن العربي، ومعرفة العربي في حضارته وتاريخه وواقعه معرفة صحيحة، ومثل هذا كله لا يحتاج إلى المال فقط، بل يحتاج إلى العلم في المقام الأول، وبالعلم يمكن أن تتلاقى الشعوب، وأن تتعارف، وأن تنتهي الحروب والصراعات، لأن الإنسان عدو لما يجهل، وصديق لما يعرف.

خاتمة:

إن وحدة الشعب العربي متحققة، وواضحة، ويكفي مراجعة جوانب الحياة في الوطن العربي، ليرى المرء الوحدة قائمة، فمجالات كثيرة كالطب والصيدلة والرياضة والتعليم والجيش والزراعة والإدارة والقانون والاتصال والمواصلات وغيرها من جوانب الحياة واحدة في أقطار الوطن العربي، هي واحدة في نظمها وأشكالها وأسمائها ومصطلحاتها، وقد يكون بعض الاختلاف هنا وهناك، ولكنه اختلاف التنوع، وهو أمر لا بد منه، وهو من سنن الحياة، وليس بالاختلاف الكلي الشامل، بل إن شوارع كثيرة تحمل في هذا القطر أسماء مدن في ذاك القطر، عدا عن أسماء المواطنين هنا أو هناك في معظم أقطار الوطن العربي، فهي متشابهة ومكرورة بل هي واحدة.

وتبقى اللغة العربية أبرز أشكال الوحدة بين أقطار الوطن العربي، وتبقى من أهم عوامل الوحدة، واللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم، بل هي وسيلة للتفكير، وباللغة يفكر الإنسان، ومن غير اللغة لا يمكن أن يفكر، وبها يتلقى العلوم والمعارف، ويتعرف إلى الكون والعالم والمجتمع من حوله، وبها يدرك المقولات والمفاهيم، وبها يصاغ وجدانه، وتنمو مواهبه، وتقوى أحاسيسه، وتتعمق مشاعره، واللغة هي حاملة التاريخ والهوية والمعبرة عن الذات الشخصية والوطنية والقومية، ومن هنا تظهر أهمية اللغة ودورها في تحقيق وحدة الشعب العربي، وخطورة السعي إلى إضعافها، وتمزيقها إلى لهجات أو لغات.

وقبل نحو سبعين عاماً كان أحمد حسن الزيات قد قال: "استقلال اللغة مظهر استقلال الذات، ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة، واتحاد البيان سبيل إلى توحيد الرأي والهوى والثقافة، فإذا سمعت امرأ يتكلم غير لغته من غير ضرورة أو يلهج بغير لهجته من غير مناسبة فلا يخامرك شك أنه كذلك في خليقته وعقيدته ونمط تفكيره وأسلوب عمله، وإذا رأيت أمة تدير في أفواهها

ألسنة الأمم وتستعير في أعمالها دلالات الناس فلا تتردد في الحكم عليها بالتبعة المدنية والعبودية الأدبية والوجود الملفق" (الزيات، ص ٣٣٦)، وفي قول الزيات ما يدل على تاريخية الصراع بين العربية وأعدائها، وما يؤكد قوة العربية واستمرار حياتها وحيويتها.

ومن هنا لا بد من العناية بالعربية، في لغة الحديث اليومي، وفي التعليم، وفي وسائل الإعلام كافة، مقروءة ومسموعة ومرئية، ولا بد من الرقي بها، لتكون لغة الكلام أقرب ما يمكن أن تكون من العربية الفصيحة، لأن الرقي باللغة هو رقي بالوعي، وتحقيق لوحدة الثقافة العربية ووحدة الشعب العربي.

المراجع المشار إليها في البحث

٢٦. خشيم، علي فهمي، سفر العرب الأمازيغ، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ١٤٢٤ ميلاد الرسول محمد.

٢٧. خشيم، علي فهمي، لسان العرب الأمازيغ، معجم عربي بربري مقارن، ج١، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط.أولى ١٤٢٤.

٢٨. الخطيب، محمد كامل، اللغة العربية، القسم الرابع، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤.

٢٩. دورل، مارتن، "اللغة انتماء جغرافي"، الموسوعة اللغوية، المجلد الثالث، تحرير ن.ي. كولنج، تر. محيي الدين حميدي، ود. عبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، ١٩٩٩ م ١٤٢١ هـ

٣٠. الزيات، أحمد حسن، وحي الرسالة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، المجلد الأول، ط.سادسة، ١٩٥٧.

٣١. السيد، د.محمود، في طرائق تدريس اللغة العربية، المطبعة الجديدة، دمشق، ١٩٨٨.

٣٢. الصالح، صبحي، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط.ثالثة، ١٩٦٨.

من مشكلات تعليم اللغة العربية

إن مشكلات تعليم اللغة العربية لا تكمن في تكوين اللغة وبنيتها وطبيعتها، إنما تكمن في أسلوب التعامل معها، أي في الناس الذين يعلمونها ويتعلمونها، إن معظم مشكلات تعليم اللغة العربية ترجع إلى واقع المجتمع العربي، وما يعانيه هذا المجتمع العربي من مشكلات اقتصادية واجتماعية وثقافية وتعليمية، ولذلك يمكن تقسيم مشكلات تعليم اللغة العربية إلى مشكلات خارجية وأخرى داخلية، ومن المشكلات الخارجية كثرة أعداد الطلاب وقلة المدارس وضعف التجهيزات وغياب الوسائل التعليمية الحديثة وسوء الوضع المعيشي للمعلم وغياب الوعي لأهمية اللغة في تعميق المعرفة وتنمية الشخصية وإعدادها للمجتمع والحياة وعدم اقتناع الطالب بأهمية التعلم ومنافسة وسائل الإعلام والتحديات الاجتماعية . ولن يناقش البحث هذه المشكلات، وإنما سيعرض لمشكلات أخرى أكثر التصاقاً بالعملية التعليمية في تدريس اللغة العربية، وهي:

١. التأريخية:

يغلب على المناهج العربية التسلسل التاريخي، فمعظمها يبدأ بالعصر الجاهلي، ثم يسير متدرجاً نحو العصر الحديث، وقد ثبتت هذه المناهج ورسخت، حتى باتت حتماً مقضياً، وما يزال الأدب العربي يقسم إلى عهود ومراحل وفق العهود والمراحل السياسية أو وفق الأحداث والوقائع التاريخية، ويظن أن هذا التقسيم من خصائص الأدب العربي وسماته المميزة، ويدافع عنها المدرس أو الباحث بأن طبيعة الأدب العربي تقتضي ذلك، وهذا في الحقيقة غير صحيح، وما المنهج التاريخي إلا واحد من مناهج كثيرة، وليس البديل أن يدرس الأدب الحديث أولاً ثم الجاهلي، فالبدائل كثيرة، منها دراسة الأنواع الأدبية، كالقصة والمقالة والرسائل والمقامات وبابات خيال الظل والحكاية الشعبية والأسطورة والمسرحية والملحمة والخطابة، وفق تطورها التاريخي من عصر إلى عصر، ومن مرحلة إلى مرحلة، وأن يدرس الغزل والمديح والهجاء وشعر الطبيعة والموشحات والشعر التعليمي والنقائض والشعر الفلسفي والشعر الصوفي وشعر الزهد وشعر الحكمة والشعر القصصي واللزوميات والنقائض والأرجاز. ومن البدائل دراسة الاتجاهات والمذاهب الأدبية، كدراسة الاتجاه الكلاسيكي والرومنتيكي والرمزي والبرناسي والواقعي وما بعد الواقعي واللامعقول، ومن البدائل أيضاً دراسة الأدب في بيئاته الجغرافية، كدراسة أدب بلاد الشام وأدب الجزيرة العربية وأدب شمال إفريقية والأدب الأندلسي والأدب في المهجر الأمريكي، أو دراسة حركات التجديد في الأدب العربي، ومن الممكن اقتراح مناهج أخرى ليتم تناول الأدب من زوايا جديدة مختلفة.

٢. **التجزيئية:**

تقوم معظم المناهج التدريسية على مختارات من الأدب العربي، وعماد هذه المختارات انتقاء أبيات شعرية لا تزيد عن خمسة عشر بيتاً أو انتقاء بضعة مقاطع لا تزيد عن الصفحتين، وهو ما يسمى الشاهد أو المثال، مما يعني الاجتزاء، ومعالجة الجزء بمعزل عن البنية العامة للعمل الأدبي، وهو ما يسيء للتجربة الأدبية، ويقود إلى نتائج سلبية في التذوق والفهم والنقد، ومن ذلك مثلاً اجتزاء وصف الفرس في معلقة امرئ القيس أو وصف الليل وتقديم المعلقة على أنها مجموعة أجزاء مفككة، أو مجموعة موضوعات ألصق بعضها ببعضها الآخر، واتهام الشعر الجاهلي كله بأنه مفكك يفتقد الوحدة وأنه يقوم على مجموعة موضوعات، ونسيان أن المعلقة هي تعبير عن قلق امرئ القيس بعد مقتل والده الملك، وانصراف حبيبته فاطمة عنه، وإذا المعلقة تعبير عن ذات ضائعة تحاول أن تجد نفسها في المغامرات العاطفية وفي الصيد وتصوير جمال الفرس والمرأة، ويؤكد ذلك أرقه وتصويره طول الليل ثم استمتاعه بالمطر الغزير وهو يأتي على كل شيء، ليحقق ما بنفسه من نزعة نحو التدمير، وبذلك تغدو المعلقة ذات موضوع واحد هو قلق امرئ القيس، ولا بد لإدراك ذلك من دراسة المعلقة كلها، لا دراسة أجزاء منها مفككة. ولقد قاد التجزيء إلى الاكتفاء بالبيت أو البيتين وأحياناً بشطر البيت، كما قاد إلى تكوين مفاهيم نقدية غير صحيحة، منها أن يتضمن البيت معنى واحداً مستقلاً، أو يتضمن أكبر قدر من المعاني ويظل مستقلاً عن غيره من الأبيات، حتى غدا تعلق معنى البيت ببيت يليه عيباً فنياً، كما قاد إلى القول بأفضل بيت قالته العرب في المديح أو الغزل أو الهجاء أو الرثاء.

٣. **التكرار:**

تقوم معظم المناهج التعليمية على تكرار الشواهد والأمثلة والنماذج المدروسة، ولا يكاد يظهر نص جديد، ومعظم الأمثلة والشواهد مما اختاره من قبل المستشرقون أو الدارسون الأوائل، ولا يكلف الباحثون أو واضعوا المناهج الجديدة أنفسهم عناء البحث عن أمثلة جديدة، بل إن بعض الأمثلة تتكرر بين مرحلة ومرحلة من مراحل التعليم، ومن ذلك على سبيل المثال قصة قاضي البصرة للجاحظ أو المقامة البغدادية للهمذاني، أو قصيدة ابن زيدون المعروفة:" إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا"، فلا يكاد يخلو منهما منهج، ومن ذلك أيضاً المعلقات نفسها، إذ تكاد الجامعات العربية كلها تتفق على تدريسها للطلاب، مع أنه من الممكن اختيار قصائد أخرى من الشعر الجاهلي أكثر منها أهمية وأكثر جمالاً، ومنها على سبيل المثال لامية الشنفرى أو عينية أوس بن حجر في الرثاء أو مختارات الأصمعي أو المفضل الضبي. ويظهر التكرار في دروس البلاغة، فالأمثلة على الاستعارة والتشبيه والكناية تكاد تكون واحدة في معظم كتب

البلاغة، القديم منها والحديث، والأمثلة الأكثر تكراراً هي أمثلة علم البديع من جناس وطباق ومقابلة، ويبدو التكلف واضحاً في جلب الأمثلة، مع أن الغاية من البلاغة تنمية الذوق، والإحساس بمواطن الجمال، وقد جعلت الشواهد المكرورة من الطالب يكره البلاغة، وكثير من المناهج الجامعية تضع البلاغة في باب النحو، وقد تحولت الغاية من البلاغة مجرد الكشف عن التشبيه أو الاستعارة وأنواعهما بعيداً عن التذوق وإدراك مواطن الجمال. ويبدو التكرار أكثر وضوحاً في الدروس النحوية، وقد يبدو التكرار هنا أمراً لا مفر له، بحجة أن النحو يقوم على شواهد لا على أمثلة، والشواهد لا بد أن تكون مما قالته العرب في عصر الاحتجاج، أي قبل عام ١٢٥هـ، وآخر شاعر يحتج به هو ابن هرمة، وإذا الشواهد بعد ذلك هي نفسها في كتب النحو كلها. ولكن ما الذي يمنع الدارس للنحو أن يردف الشواهد بأمثلة معاصرة، لتكون الدروس أوضح، وأكثر ارتباطاً بلغة العصر؟

خاتمة:

ومما لاشك فيه أن ما تقدم هي بعض مشكلات تعليم اللغة العربية، وليست كل المشكلات، ولابد من حلها لتطوير العملية التعليمية، وهنا يظهر الحل، وهو يقوم على أمرين اثنين، الأول هو العودة إلى التراث، وقراءته بعمق وشمول، وبذل الجهد في فهمه، والوقوف على أمثلة جديدة فيه، وهو غني بمثل هذه الأمثلة، والأمر الثاني في حل المشكلات هو متابعة الجديد في النقد والإبداع، لمواجهة مشكلات العصر، وتلبية حاجات المتعلم، وربط العلم بالواقع والمجتمع.

وتحقيق هذين الأمرين لا يكون إلا بالمتابعة وتثقيف الذات، وعدم الاكتفاء بالشهادة الجامعية، أو الكتاب الجامعي، أو الكتاب المدرسي المقرر، إن معظم المعلمين والمتعلمين يرفضون الاطلاع على ما هو خارج الكتاب المقرر، ويرفضون كل ما هو جديد في عالم الأدب والنقد، ولا بد من إيجاد الحوافز للطالب والمعلم معاً لتطوير العملية التعليمية، وهي حوافز مادية ومعنوية، بإقامة المسابقات، وتأسيس المجلات المدرسية والجامعية، والتشجيع على الاطلاع والتأليف، ودفع المكافآت، والتشجيع على استخدام الحاسوب وتقانات التعليم الحديثة، وإغناء المكتبة المدرسية بالكتب والدوريات وأقراص الحاسوب.

إن مشكلات تعليم اللغة العربية ليست كامنة في اللغة، وليست نابعة من اللغة، وإنما هي نابعة من بنية المجتمع، وطبيعة العلاقات فيه، ومن المؤسسة التعليمية، وبذلك لا يكون الحل إلا بجهد الإنسان نفسه، ورغبته الحقيقية في حل المشكلات.

المحتـوى

مقدمة	٣
العربية الفصيحة في كل بيت	٨
أهمية المشافهة في تعليم العربية	١٨
اللغة العربية والمستقبل	٢٥
الحاسوب وتنمية المقدرة اللغوية	٥١
القراءة والحضارة	٧١
متعة القراءة بين التلفاز والحاسوب	٧٧
الحاسوب وآفاق القراءة المستقبلية	٨٤
من قضايا النشر الإلكتروني	٩١
وحدة الثقافة العربية	٩٤
من مشكلات تعليم اللغة العربية	١١٠

صدر للمؤلف

دراسات

- **حركة التأليف المسرحي في سورية**، دمشق، ١٩٨٢
- **المسرحية التاريخية في المسرح العربي**، دمشق، ١٩٨٩
- **دراسات في المسرحية العربية**، حلب، ١٩٩٧
- **دروب الشعر العربي الحديث**، حلب ٢٠٠٠
- **من الأسطورة إلى القصة القصيرة**، دمشق،٢٠٠١
- **قصائد مقارنة**، حلب،٢٠٠١.
- **انكسارات**، بيروت،٢٠٠٤.
- **متعة الرواية**، بيروت، ٢٠٠٥.
- **من التراث الشعبي**، بيروت، ٢٠٠٥.
- **قصيدة النثر**، دمشق، ٢٠٠٧.
- **قراءات في الشعر العربي الحديث**، حلب، ٢٠٠٧.
- **نوافذ وشرفات**، حلب، ٢٠٠٧.

قصص قصيرة:

- **يوم لرجل واحد**، دمشق، ١٩٨٦
- **حجارة أرضنا**، دمشق، ١٩٨٩
- **الكوبرا تصنع العسل**، حلب، ١٩٩٦
- **بدر الزمان**، حلب، ١٩٩٦
- **حلم الأجفان المطبقة**، دمشق، ١٩٩٦
- **عريشة الياسمين**، حلب، ١٩٩٦
- **لأنكِ معي**، دمشق، ٢٠٠٠.
- **طعم العصافير**، حلب، ٢٠٠١
- **العودة إلى البحر**، دمشق،٢٠٠١.
- **الرحيل من أجل مها**، دمشق، ٢٠٠٣..
- **وردات في الليل الأخير**، بيروت، ٢٠٠٥.
- **ريش نعام، حلب، ٢٠٠٧**
- **نجوم صغيرة**، حلب، ٢٠٠٨
- **الأعمدة والغزالة**